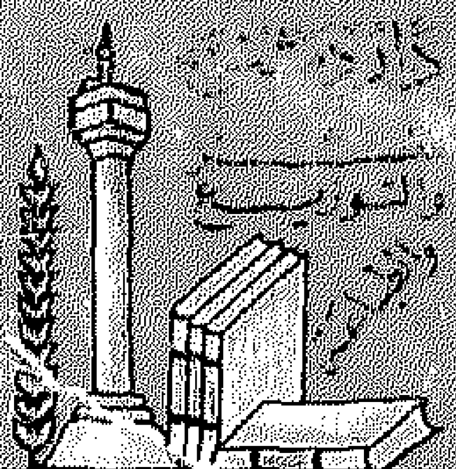
أنور سلوم





تتار القرن العشرين

الجريمة المنظمة

أنور سلّوم

تتار القرن العشرين
الجريمة المنظّمة



طبعة أولى
١٩٩٤

الكتاب: تتار القرن العشرين ـ الجريمة المنظمة
إعداد : أنور سالم سلّوم
المطبعة: جوهرة الشام
الناشر: دار دمشق
دمشق ـ شارع بورسعيد ـ هاتف ٢٢١١٠٤٨
فاكس ٢٢١١٠٢٢
ص.ب ٥٣٧٢

المقدمات

الجريمة والجريمة المنظمة

● « الزوبعة قادرة على محو مدينة، ولكنها عاجزة عن فض رسالة، وعن فك عقدة خيط ».

بول فاليري

١ ـ قوة الشر؟!

□ □ يقول بول فاليري: «الزوبعة قادرة على محو مدينة، ولكنها عاجزة عن فض رسالة وعن فك عقدة خيط».

□ □ ويقول الكاتب اليوناني الشهير يوريدوس في مسرحية ميديا:

«... وتقول الاسطورة أن الخادمة طلبت من المربي أن يخفي الأولاد خوفاً من بطش أمهم ميديا التي وصلت إلى ذروة الغضب والشر بعد أن هجرها حبيبها «جاسون».

قال المربي: «إن جنون غضبها، أعلم ذلك، لن يهدأ قبل أن تقتل ضحية. آه، ليت هذه الأخيرة تكون على الأقل من بين أعدائنا..».

□ □ لما تمّ للاسكندر المقدوني فتح بعض البلدان، أمر بالقبض على لص من لصوص البحر، ولما جيء به ومثل بين يديه سأله:

ـ بأي حق تسرق مال الغير؟.

فأجابه:

ـ أنا أسرقه بسفينة صغيرة فيدعونني لصاً، أما أنت فتسرق باسطول كبير وتسمّى بطلاً!.

□ □ يقول الفيلسوف الأميركي ومنذ الخمسينات بأن الرأسمالية الحديثة تحتاج، لاستمرار بقائها، الى «تقنية دعائية ماكرة تضلل الناس وترهبهم».

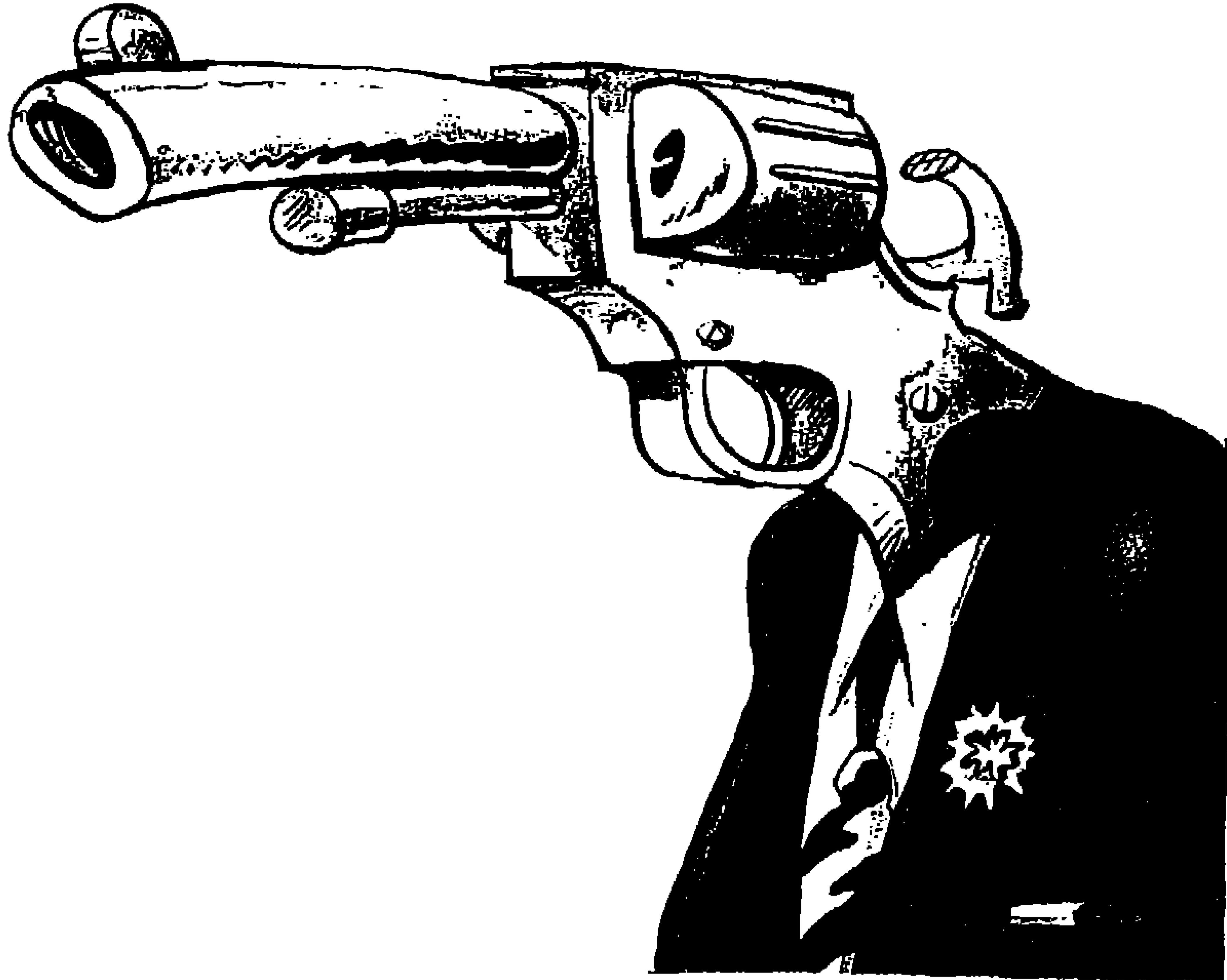
□ □ من كتاب «كيف أصبح الانسان عملاقاً» تأليف (م. إيلين) و(أ. سيغال) نقتطف:

«حقاً لقد كان الماموث أضخم من الانسان بمئات المرات، غير أن هذا الأخير كان أكثر دهاء.

كان الماموث بوزنه، يدوس رجلاً دون أن يشعر به، غير أن الانسان البدائي استغل ذا الوزن العظيم ليصرع ذلك الجبار الذي أوجع الأرض بثقله. كيف هذا؟.

حاصر الصيادون الماموث بعشرات الرماح، وأحرقوا النار في السهب من حوله، فذعر وجن جنونه، ووثب والنار تتصاعد من وبره المحروق.. وقادته فطنة الانسان وذكاؤه الى المستنقع القريب، فغرق فيه مندفعاً بوزنه كالصخرة، واهتزّ الهواء بضربات خرطومه، وحاول جاهداً تخليص قوائمه واحدة بعد الأخرى، لكنه كان يغوص في وحل المستنقع أكثر فأكثر ولم يبق سوى الاجهاز عليه».





٢ ـ العنف وأشكال الصراع

إن الإضاءة التي تسلطها العلوم الإنسانية على العنف غنية بالعبر، فهي تسعى لأن تبين أن العنف ليس حادثاً عابراً ومؤسفاً من حوادث السلوك الإنساني وحسب، بل هو يتدرج في وضع مألوف من التواترات والمجابهات. فان العلاقات الانسانية تقوم عادة على أرضية من الصراع والتناقضات، وعلائق القوى، فالعنف يكمن فيها كتهديد دائم، وهو يتفجر أحياناً كالبركان، تحت ضغط نار داخلية، لا يخمد لهيبها على الاطلاق.

بقدر ما نستطيع أن نعتبر اوضاع العنف على أنها أحد الأشكال العامة للصراع بقدر ما أن الخواطر تكون قد جمعت من العناصر ما يفسح المجالَ لتقصي العنف بحصر المعنى، ولما كان من الصعب الاحاطة بدقة، بطبيعة هذه الحقيقة المعقدة أكثر مما يبدو لأول وهلة.

ان طرح مسألة العنف على المؤسسات السياسية، هو طرح لمسألة السلطة بصورة جذرية الى حد ما، وتلافياً للتبسيطات المفرطة فاننا ننوي بحث مختلف الحالات المحتملة من الزاوية الأخلاقية التي تهمنا هنا.

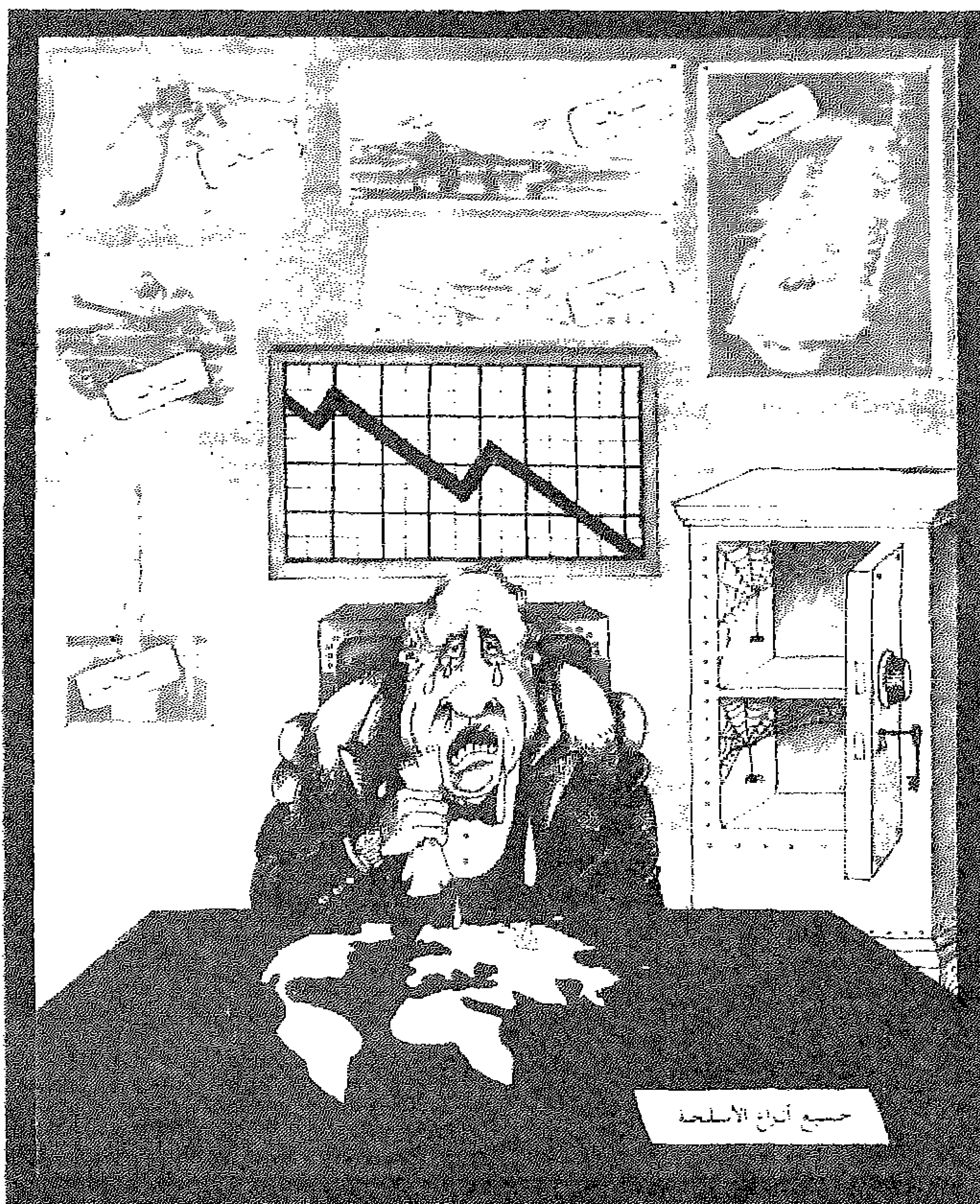
لقد خبرنا خلال الأعوام الخمسين التي مضت، أشكالاً من العنف غدت مؤسسات طبعتنا عمقاً بطابعها بعد الاعاصير التي عرفناها، وأصبح نوع من التفاؤل الغبي أمراً مستحيلاً أقله بالنسبة الى الذين يرفضون النسيان كلما ابتعد الخطر قليلاً.

ليست حركة وسمة العنف والابادة، شيئاً جديداً، بل أنها مرتبطة بتاريخ البشرية، وبتطور البشرية هذه، تطورت الأساليب والأدوات بما يتلاءم مع تطور العصر وحاجاته: وفي عالمنا أمثلة كثيرة، سنتعرض اليها من خلال عرضنا لبعض النماذج، بخاصة في الولايات المتحدة الاميركية، والمجتمع الغربي عموماً.

ومع سمات العنف التي تسود بعض المجتمعات يترافق ذلك مع صفات أخرى، منها ما يساهم ويطور أساليب العنف، ومنها ما يساهم في وضع حد لهذه العمليات لأن المسألة الاقتصادية تلعب الدور الكبير في توجيه المجتمع وبنيانه، وشيء يلمس من

خلال تفاقم الأزمات الاقتصادية في العالم ومدى تأثيرها على الدول، وبخاصة الرأسمالية. الا أن هناك مؤثرات للتقدم التكنولوجي تنحى بالاتجاه الايجابي حيث يساعد ذلك على بناء نظرة عامة نلقيها على واقع المجتمعات التي تكون الدول، ولعل في ذلك مساهمة جدية في بلورة التفكير التحليلي الذي يمكن أن يحكم على الواقع.





٣ - رؤية في العنف والجريمة والانسان

- ١ -

□ □ لم يسبق لي أن التقيت جلاداً: أي انساناً تقوم مهنته على تنفيذ حكم الموت بإنسان ما وفق القواعد المتبعة وباسم القانون. لم ألتقِ مثل هذا الجلاد بلحمه وعظمه. لكنني رأيت الصورة موجودة في «مطول علم النفس» القديم لجورج دوما، في الفصل الذي يتحدث عن الألم. وهي تمثل العقوبة (الصينية، حسب العادة) المسماة «القطعات المائة» والقصة معروفة جيداً. فهناك شاب قام بعملية اغتيال ضد اسرة الامبراطور. ويقضي القانون بأن يتم حرقه حياً على نار هادئة. غير أن الامبراطور كان، في لحظة حلم، قد اتخذ قراراً:

«لما كانت عقوبة النار شديدة العذاب،
فإن على المحكوم أن يخضع لعقوبة القطعات المائة.
والمجد لهذا القرار».

□ □ وينطوي مطول «دوما» على مجموعة من الصور تمثل كل واحدة منها طوراً من العقاب. لا يمكننا، في مثل هذه القضية أن نتلافى الجلاد. اذ أننا نتميزه جيداً في منتصف العقوبة:

«وجهاً لوجه، منحنياً قليلاً، وهو يقوم بنشر الساق، بين القدم والركبة، ولا نرى على وجهه أي أثر للقسوة، وانما نرى ملامح الانتباه، ونوعاً من الرفق، ملامح انسان يقوم بعمل الخير كما يجب القيام به».

□ □ وهكذا فربما كان الشاب قد ارتكب العنف بغضب، غير أن كل شيء يعود الان الى وضعه الطبيعي دون اضطراب ولا غضب، كما أن وجه الجلاد يحمل علامة هذا الانفراج. لقد كان جلاداً «طيباً، وماهراً، ورؤوفاً». كان يقطع هذا الجسد الحي (بمهارة ورحمة). «رحمة»: هوذا اسم خنجر كان يستخدم قديماً في ذبح الجرحى.

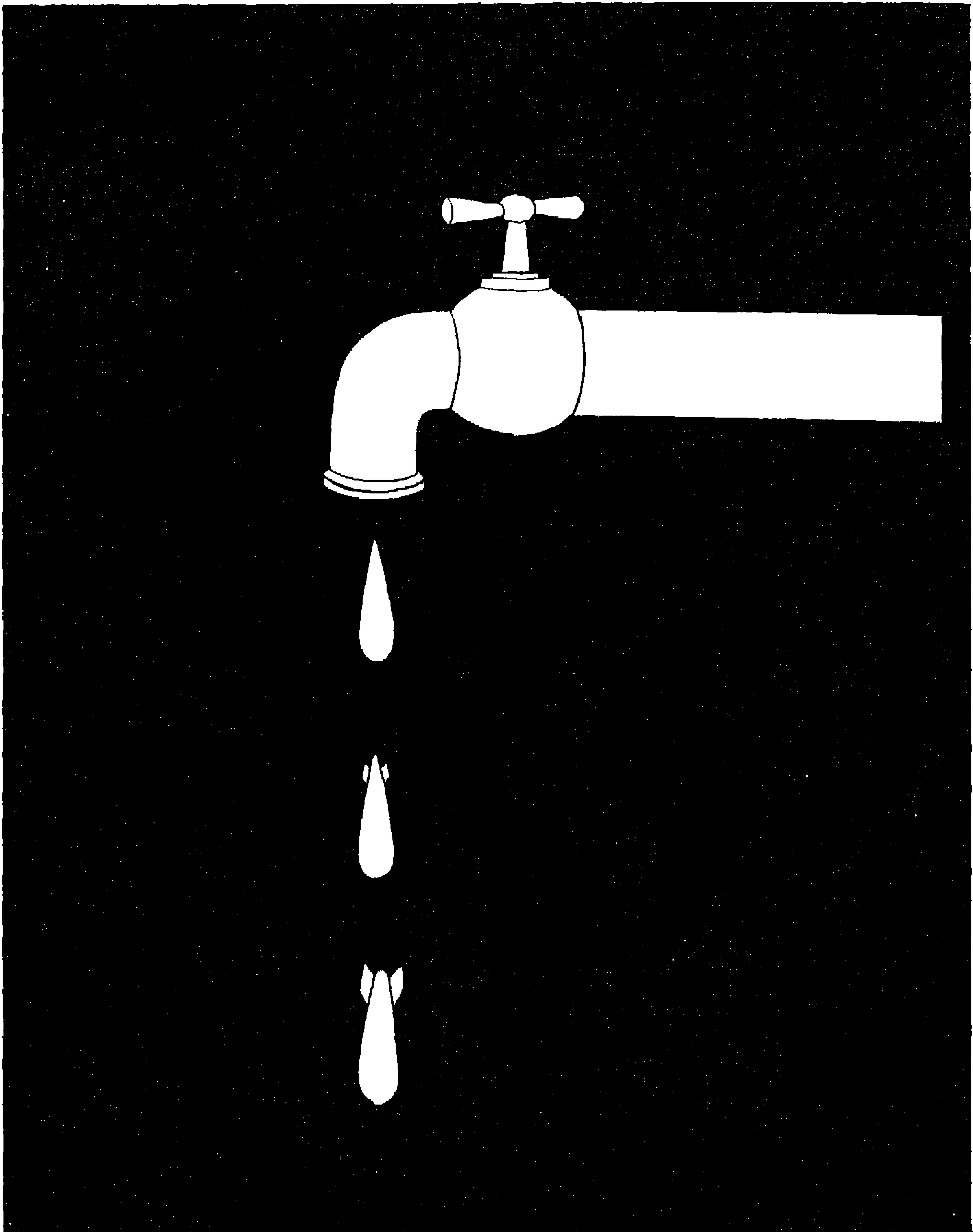
□ □ من غضب المتمرد الى «عطف» الجلاد: نهايتان تحدان مكاناً ما، نوعاً من منصة المسرح. وعلى هذه المنصة يتم تمثيل مسرحية بدأت منذ وقت طويل ولا أحد يعرف نهايتها: «تحولات الجريمة والعنف».

ـ ٢ ـ

□ □ تبقى أشكال العنف الجماعية، المنظمة، التقنوية، التكتيكية. عنف الشرطة، عنف الجيوش، عنف الكنائس والحزاب. ولا يفيدنا تعدادها في كثير. فهي منتشرة في الزمان. قد تنسى أحياناً، وقد تبدو أنها أبدية، باقية، كسنة تتبع. انها من النوع الساكن ـ كتلة من الرصاص الذي يزن أطناناً من الآلام المكبدة والذل المفروض.

□ □ تلك هي الحرب ومرة أخرى الحرب التي تولد من العنف المضاد، وحرب المتمردين المتناوبة. وقد قال لنا مفكر قديم جداً عن الحرب إنها «أب كل الأشياء» لا نذهبن الى المغالاة حول كلمات هيراقليط العجوز لنحتفظ ببساطة بهذا (الذي لم يكن ليقوله له ولا ريب): كل شيء يعيش يبقى صارماً في اختلافه. وهو عنيف في هذا: إنه يغيب ليعود للظهور. عنف ساكن يولد الحركة. وهذا يصح على اللون الذي يستنفر العين. وهذا يصح على زهرة الأوركيد التي تقتل ما تعيش عليه. وهذا يصح على «المجرم» الذي يعمل على أن يبعث في عالم ينكره المكان الذي يستطيع العيش فيه. وهذا يصح أيضاً على المجموعات التي نسميها «مجتمعات» مع فارق بسيط: فهذه المجتمعات تتمسرح كحالة بين الحالتين حيث يجتمع الساكن والمتحرك. فهي مشهد ما يزال يسمى «تاريخاً» حيث لا تقوم حياة البعض فيه إلا على موت الآخرين.

□ □ وهكذا فان موت الشاب الصيني المنكل به كان حياة الجلاد. كل شيء يعود الى نظام الجريمة الساكن في مشهد التعذيب المقدم رأفة ببعض المتسكعين، ذات يوم كغيره من الأيام، على منعطف طريق عادي، في مكان ما، من الصين، قديماً...



□ □ إن وثائق تاريخ العالم المتحضر توفر لنا الأمثلة توفر لنا الأمثلة الكثيرة على ظهور الممارسات التدميرية (الجريمة المنظمة) وليس تاريخ الحروب الطويل سوى الشاهد على ذلك. اذ، فيَ استعراضنا لتاريخ البشر، تتكرر المجازر وأعمال القتل والتدمير والتمثيل. من السجناء الذين يتركون أحياء في الملاعب المقفلة عرضة لأنياب الحيوانات المفترسة، في العصور الرومانية، الى الحروب الكيميائية، الى المجازر الجماعية في حروب الطوائف والاتنيات (حرب تقسيم الهند حيث بلغ عدد الضحايا نتيجة الاقتتال بين المسلمين والهنود مئات الآلاف من القتلى)، الى حروب التصفيات السياسية كما حدث في أندونيسيا عام ١٩٦٥ ، حيث تم تصفية ما بين ٥٠٠ ألف الى مليون أندونيسي بتهمة مناصرة الشيوعيين، الى غيرها من الشواهد الحاضرة في جنوب لبنان وفلسطين المحتلة والعراق والصومال و(البوسنة والهرسك). والشواهد كثيرة على أن ما تسفر عنه هذه النزعات، من مآسٍ وقتلٍ وتدمير.

□ □ إن أكثر حالات الجريمة المنظمة أهمية هي الحرب. ومن الشائع اليوم أن نعتبر الحرب تجسيداً لغريزة الانسان التدميرية. وبالرغم من الموقف الخاطئ الذي يقفه أتباع علم النفس التحليلي من تفسير الحرب بوصفها (شكلاً في غير محله من أشكال التكيف الغريزي) كما يقول (أ. غوفلر ـ و م.جنسبرغ، ١٩٣٤) ولقد كون فرويد نفسه نظرة أكثر واقعية بل كان يرى جذورها في النزاعات الواقعية ما بين الجماعات والتي كانت لا تجد لها حلاً إلا عن طريق العنف وارتكاب الجريمة.

□ □ ويبدو أن التاريخ البشري يؤكد ما يفترضه فرويد. ويدحض فرضيات ميل الانسان الفطري للحرب. ان دروس التاريخ واضحة في هذا الشأن. فلقد تبين لنا في دراستنا للعدوانية لدى الشعوب البدائية، ان هذه الأخيرة لم تكن تبدي في نزاعاتها أية نزعة تدميرية أو ضراوة ظاهرة في الجريمة المنظمة بل كان الطابع الدموي للحروب يتفاقم ويزداد مع مراحل تطور الحضارة حتى أزمتنا هذه في ظل النظام العالمي الجديد الذي تقوده وتتزعمه الولايات المتحدة الاميركية.

ـ ٤ ـ

□ □ اذا كانت الانسانية قد استمرت بعد كل أشكال الجريمة المنظمة في البقاء فانها لم تنجح أبداً بضمان نفسها ضد خطر التدمير الذاتي. لقد تضاعفت المسؤولية الأخلاقية وزاد النفور من القتل ولا شك، لكن سهولة تنفيذ القتل وحصانتها العاطفية قد زادت بالقدر نفسه. فالمسافة التي بلغتها فعالية الاسلحة النارية قد أضحت كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح للمصوب أن يبقى بمنأى عن المواقف المثيرة التي كانت ستنشط في حال وجوده فيها كوابحه ضد القتل. ان الطبقات ا لعاطفية العميقة في شخصنا لا تسجل بكل بساطة أن حركة الضغط على الزناد وتفجر أحشاء انسان آخر. ولم يكن أي إنسان طبيعي ليذهب لصيد الأرانب مستمتعاً لو توجب عليه أن يقتل طرائده بأسنانه وأظافره وأن يصل بذلك إلى درجة التحقيق العاطفي الكامل لما يفعله في الواقع.

□ □ وينطبق المبدأ نفسه، وبدرجة أكبر أيضاً على استخدام الأسلحة الحديثة التي يتم توجيهها انطلاقاً من مسافات بعيدة. فالانسان الذي يضغط على الزر محميّ تماماً ضد النتائج الممكن ادراكها لعمله، إنه لا يستطيع رؤيتها ولا سماعها. لذلك فان بوسعه أن يتصرف دون عقاب حتى ولو كان يتمتع بموهبة الخيال. وهذا وحده ما يفسر أن أناساً عاديين لا يقدمون حتى على صفع طفل شرير قد ظهروا قادرين على قصف المدن بالصواريخ أو على اشباعها بقنابل النابالم مؤدين بذلك الى موت المئات بل الآلالف من الأطفال موتاً رهيباً في لهب الحرائق.

ـ ٥ ـ

□ □ لقد قام سيدني مارغولين في دنفر بكولورادو، بدراسات شديدة الدقة في التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي حول هنود المراعي وخاصة حول الـ (الأوت)، وبيّن أن هؤلاء الناس يشكون بشكل خطير من فرط غرائز عدوانية يستحيل تقليصها ضمن شروط الحياة في الولايات المتحدة الاميركية.

□ ويعتقد مارغولين أنه خلال عدد من القرون قدر فيها لهؤلاء الهنود أن يعيشوا حياة وحشية مكرسة حصراً للحملات الحربية وللصيد، حسب ضغط انتخابي شديد الحدة، أدى الى تنمية عدوانية قوية لديهم.

□ وحسب مارغولين فان هنود الآوت الذين يخضعون الآن للتأثيرات التربوية المختلفة كلياً، منهم يعانون تماماً كهنود القبيلة الذين نشأوا حسب النظام التربوي الخاص بثقافتهم.

□ يشكو هنود الآوت غالباً من ضروب عصاب يمكن أن تشكو منها أي جماعة بشرية، ولقد لاحظ مارغولين دوماً أن السبب المشترك لهذا العصاب هو عدوانية لم يتم تفريغها. فكثير من هؤلاء الهنود يستشعرون أنفسهم مرضى، ويعبرون هم أنفسهم عن ذلك. وحين يسألون عن سبب مرضهم فانهم لا يستطيعون الاجابة إلا بـ: «ذلك لأنني من الآوت».

□ ان القتل والعنف والجريمة المنظمة تمارس ضد أشخاص من خارج القبيلة ما زالت حاضرة، وبالمقابل فانها نادراً ما تمارس ضد أعضاء القبيلة نفسها، فهناك كوابح تحول دون ذلك وتبلغ من الصرامة حداً تبدو معه سهلة الفهم اذا ما تذكرنا سوابق الآوت في هذا الميدان.

□ إذ أن على القبيلة أن تتلافى بأي ثمن النزاع بين أعضائها في الوقت الذي تعيش فيه حالة حرب مستمرة بينها وبين القبائل المجاورة. والذي يقوم بقتل واحد من أبناء قبيلته يرغم تحت وطأة التقاليد على الانتحار. لا بل أن شرطياً من الآوت كان قد قتل أحد أبناء قبيلته أثناء محاولته ايقافه في حالة دفاع عن النفس شرعي قد خضع لهذا التقليد. فقد كان هذا الجانح، وهو في حالة سكر شديد، قد طعن أباه طعنة أدت إلى موته إثر نزيف سببته الضربة. وإذ تلقى الشرطي - وهو من الأوت شأن الجانح - الأمر باعتقال القاتل، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أمر بقتل القاتل - فان الشرطي احتج قائلاً لرئيسه الأبيض ان الجانح كان يريد أن يموت، وأنه مرغم على الانتحار وأنه سيحقق هذا الانتحار ولا شك من خلال محاولته مقاومة اعتقاله واجباره أي هو، الشرطي على قتله، ولما كان العريف لا يملك تغيير التعليمات فانه أصر على الأمر الذي أصدره وتمت المأساة في الواقع على النحو الذي توقعه الشرطي.

هكذا نقرأ هذا التقرير الذي كتبه مارغولين وسواه من التقارير كما نقرأ المآسي الاغريقية: قدر لا مرد له، يرغم الانسان على أن يصير مذنباً وعليه أن يكفر برضاه عن هذا الذنب الذي اقترفه دون ارادته.

ـ ٦ ـ

□ □ قام العلماء الأميركيون في الاجتماع وعلم النفس والطب النفسي، خلال حرب (فيتنام)، باستطلاعات خاصة في القوى الجوية للولايات المتحدة الأميركية، ليوضحوا ـ عبر تحقيقات واختبارات مختلفة ـ حالة الطيارين الأميركيين المعنوية، الذين اشتركوا في قصف الهند الصينية وقراها، وليعرفوا انطباعاتهم في هذا الموضوع.

□ □ ونشأ عن ذلك لفظ خاص: هو «عدم النفوذ المعنوي» أو «الحذر المعنوي» وهذه اللفظة تعني غياب كل مشاعر التعاطف لدى الانسان أمام ألم أعماله في قليل أو كثير.

وقد كتب في هذا الموضوع الطبيب النفسي الاميركي روبرت ليفتون:

«إن الطيارين الاميركيين لا يتمتعون بما يكفي من الخيال والبصيرة النافذة الأخلاقية لكي يعوا تماماً ما يفعلونه خلال مهماتهم القتالية: انهم لا يرون ـ علمياً ـ لا الأرض، ولا الناس بالأحرى، ولا بصورة عامة الأهداف الخاضعة لقصفهم. ولهذا، عندما يسقطون قنابلهم، يظلون أليين غيرمبالين بالموت الجماعي.. يشعر الطيارون فقط انهم أحد العناصر المشكلة لنظام نقل خاص. ويقارنون أنفسهم بسائقي الشاحنات التي تنقل حمولات خل مسافات طويلة، وبالنسبة اليهم ليس للحرب أي شكل مميز مطلقاً»

□ □ وبذلك يتحول مجرمو الحرب الى منفذين معصوبي الأعين لارادة مجهولة، وإلى آلة بسيطة تكنيكية لتنفيذ أمر الادارة العليا. يفترض أنهم لا يقتلون أحداً بأنفسهم مباشرة، ولكنهم يديرون فقط أحدث معدات الموت والدمار التقنية. ويبدو الناس كضحية لا ارادة لها، وأداة عمياء بيد هذه القوى التقنية الجبارة والتي لا يمكن السيطرة عليها. وهنا يكمن السبب الرئيسي لكل آلام البشرية

المعاصرة وويلاتها.

وقد كتب ماركوز:

«.. وهكذا فان المنهج العلمي، الذي سمح بسيطرة الانسان على الطبيعة بشكل مفيد، قد قدم الأفكار البحتة، ولكنه قدم بنفس الوقت مجموعة وسائل ساعدت في سيطرة الانسان على اخيه الانسان بازدياد... واليوم، ما تزال السيطرة موجودة، وقد اتسعت بواسطة التكنولوجيا، التي تبرر للسلطة السياسية ابتلاع كل مجالات الثقافة عندما تتسع».

- ٧ -

□ □ ان الخوف من المستقبل، ومن الضياع الحتمي للبشرية، الذي سيجلبه التطور العلمي والتقني، هو ما يملأ كتاب «صدمة المستقبل» للكاتب وعالم الاجتماع الاميركي ألفين توفلر، ان المؤلف يرسم لوحة مظلمة لنتائج التقدم العلمي والتقني ومظاهره الاجتماعية، حين يصف كل «بشاعات مستقبل العلم والتكنيك» ويلقي بتبعية تناقضات المجتمع الاميركي فيما يخص مجالي العلم والتكنيك، على البشرية. لأن الناس في رأي توفلر غير قادرين على التلاؤم مع الايقاع السريع للثورة الصناعية الجبارة، ولأن التكنيك يجرد الانسان من حقوقه، ويختلس مقامه، ويثير انفصالاً داخلياً نفسياً ومعنوياً لدى الشخصية. وأعراض هذا الانفصال هي الكراهية العدوانية، وانفجار العنف والأزمات في المجتمع.

□ □ لقد انعقدت عام ١٩٧١ في الولايات المتحدة الاميركية محكمة مرتجلة تحت شعار «الانسان ضد التكنيك». وتألفت هيئة المحلفين من عدد من العلماء والشخصيات الشعبية الاميركية، وبعد أن سمعت افادات أشخاص مختصين في فروع العلم والتكنيك المختلفة؛ أصدرت حكمها بأن:

«التكنيك مذنب،

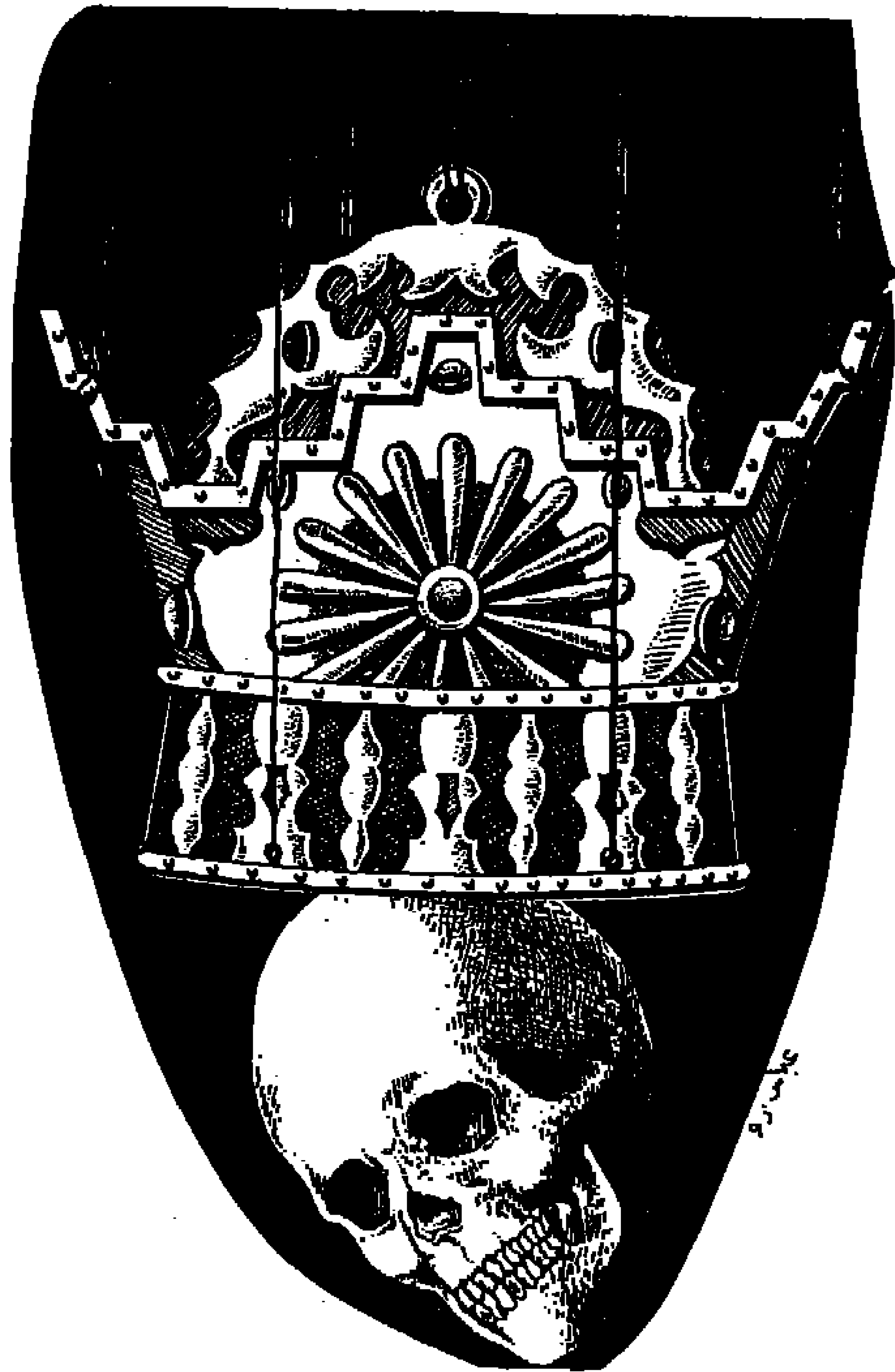
فهو يهدد مستقبل البشرية»؟.

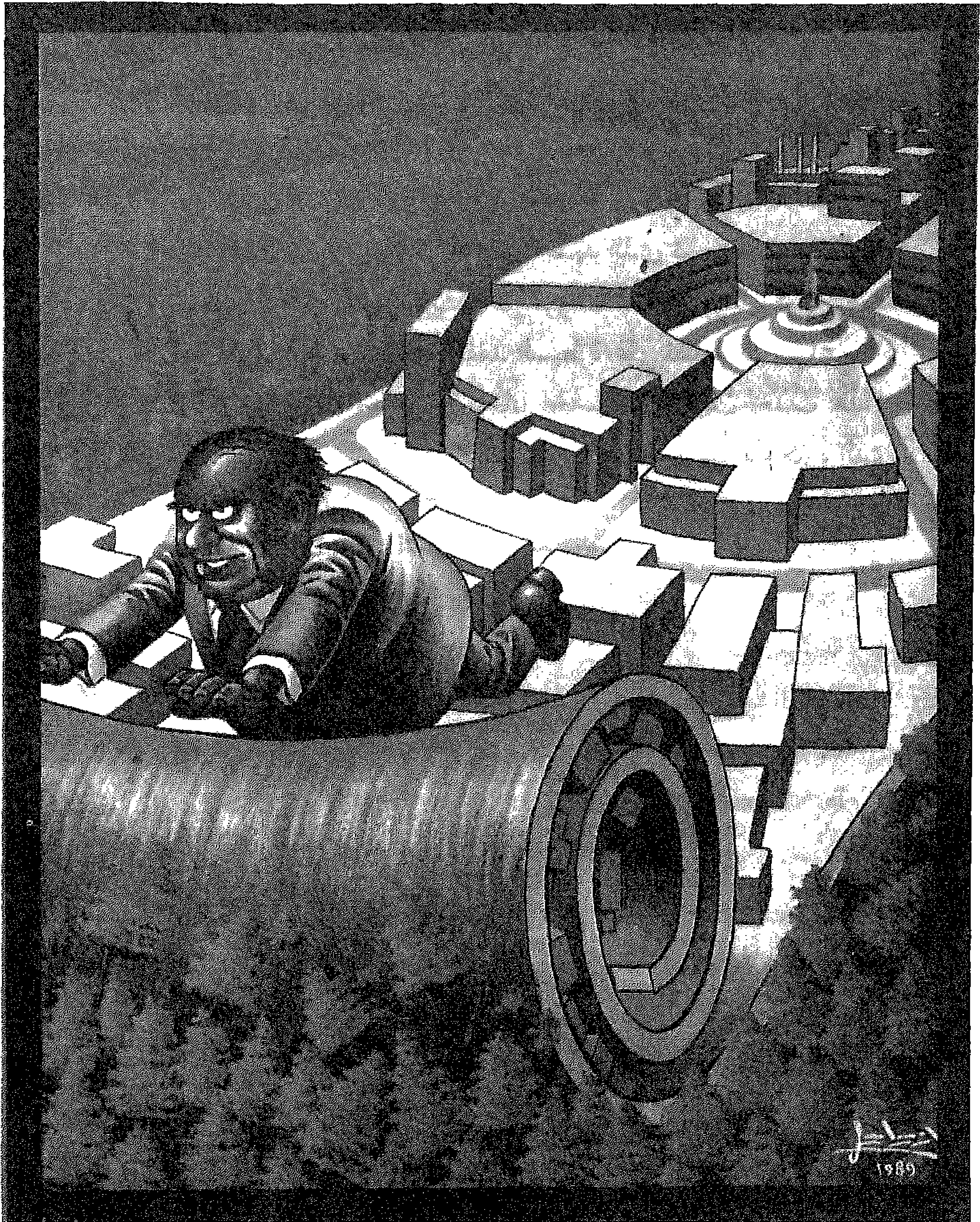
□ □ لا شك أن تطور البشرية الاجتماعي والاقتصادي يعود اليوم الى التقدم التكنولوجي بدرجة كبيرة من جهة، وأيضاً من جهة أخرى أن التقدم

التكنولوجي يساهم في ازدياد القدرة التدميرية للأسلحة ويزيد بالتالي من تهديد الحرب، كما كتب الفيزيائي الاميركي سيلفر.

وليست فكرة اتهام العلم لكل آلام البشرية وويلاتها جديدة ولا مبتكرة. فلقد وجه اتهامات من هذا النوع منذ بداية عصرنا مفكرون مثل شبنغلر / وبردينايف/ و/أورتفاي غاست/ الثائرين على نمط الحياة «الممدن والمضخم والمتقن» والداعين الى عودة البشرية الى الأرض والطبيعة والعمل اليدوي الفردي. ولقد قال شبنغلر، مدافعاً عن موقفه المعادي للتكنيك، ان: «الآلة هي عمل الشيطان». وقد كتب «فروم» في كتابه «ثورة الأمل»:

«هناك طيف يحوم بيننا، انه المجتمع الجديد الذي توجهه آلات حاسبة، في سبيل الانتاج الشره واستهلاك الثروات المادية، وربما تكون الصفة الأكثر شؤماً لمجتمعنا هي اننا نفقد السيطرة على نظامنا الاجتماعي. اذ اننا ننفذ قرارات تتخذها من أجلنا الحاسبات.. كيف حدث هذا؟. كيف أصبح الانسان الذي انتصر على الطبيعة، أسيراً لابتكاره الذي يهدده الآن بالفناء؟»





٤ ـ صور من مجتمع الجريمة المنظمة

● «أنوار الشمس غائبة
حتى اشعار آخر،
النجوم منطفئة،
تائهة في المدى الأبدي»

ـ ١ ـ

□ □ ميلانو بإيطاليا، يوم الجمعة، ١٢ كانون أول ـ ديسمبر عام ١٩٦٩، تزدحم الشوارع المركزية بآلاف السكان عشية أيام العطل، والازدحام شديد في المخازن والمحلات الكبرى والمصارف وصناديق التوفير، دوامة بشرية تتدفق في ساحة دومو المركزية تحت قناطر فيكتور عمانوئيل..

الساعة ١٦ و ٤٥ دقيقة، ساحة النافورة (فونتان). يهدد بانفجار مرعب في قوته، وتنطلق ألسنة اللهب وأعمدة الدخان من مبنى المصرف الزراعي وتسمع اصوات تمزق الافئدة. وسيارات الاسعاف تنقل المصابين بينهم سبعة عشر قتيلاً وقرابة المئة جريح من زوار المصرف ومن المارة، من الضحايا البريئة.

بعد عدة دقائق في ساحة لوسكال. يكتشف احد مستخدمي المصرف التجاري الايطالي الواقع غير بعيد عن المسرح الشهير في العالم بأسره، يكتشف بالمصادفة حقيبة بجانب المصعد «منسية» من قبل شخص ما، مصنوعة من الجلد الأسود في داخلها علبة معدنية. انها قنبلة اخرى. ولحسن الحظ لم يفعل مكبس الزمن فعله.

الساعة ١٦ و ٥٥ دقيقة من الطرف الآخر من ايطاليا روما.. انفجار قنبلة بالقرب من البنك القومي للعمل.. ثلاثة عشر جريحاً من المارة. الساعة ١١ و ٢٢

دقيقة، انفجار قنبلتين بالقرب من النصب التذكارية في وسط العاصمة.. الجرحى أربعة.

□ □ في السابع عشر من كانون أول - ديسمبر ١٩٦٩ أعلم المخبر رؤساء أجهزة الاستخبارات الايطالية ان احد منفذي التفجيرات هو الفاشي الجديد واربو مارلينو الذي حصل بدوره، على أمر من الزعيم الفاشي الجديد ستيفانو ديليه كياي المرتبط بالمدعو (ي.غيرين سيراك) مدير وكالة آجنتير بريس في لشبونة وأكد المخبر ان مارلينو وديليه كياي قاما بهذه الأعمال الارهابية من أجل أن تلقى المسؤولية عنها على منظمات اخرى.

□ □ يقول فرح انطون على لسان احد شخصيات رواية «الدين والعلوم والمال»:

«... فإن ألسنة النار كانت تندلع في المدن الثلاث (المال والعلم والدين)، فتنير الافق بنور تخالطه سحب من الدخان القاتم، تحت سماء مستترة بالغيوم السوداء، كانت السماء خجلت من أن تشاهد فظائع البشر في الأرض في تلك الساعة...».

- ٢ -

□ □ يورد الكاتب نبيل هادي في كتابه «اخطبوط الارهاب» هذه الصورة: «ذات يوم وقف صحافي غربي على شرفة مطلة على بيروت فيما كانت البارجة «نيوجرسي» تدك التلال والضواحي بقذائفها. فيأخذه الحلم الى المعهد التقني في مدينة ماتسا شوستس الاميركية: «الانقاض تتفتح في الاسفل، وتصبح الحجارة سلالم (...) انني انزل الآن الى وادي بيتسبورغ ثم طوابق البنتاغون تحت الأرض، انني اسير الآن فوق سلسلة جبل ديترويت (...) وفي ماديسون يقف جمع غفير، ينشدون ويدهم على قلبهم، أميركا خلاقة، حية، منفعلة، تمر في حلمي».

ويفتح الصحافي عينيه و «يعود» الى الشرق الادنى، «إلى الذين هم في الجبل» الآن، يجتاحهم الخوف بلونه الأصفر، من لبنانيين وسوريين (...)».

ثم ينظر الى البحر: «لهذه البارجة اعتبار واحد وهو أن وجودنا يدفع بالحرب اللبنانية الى مستوى لم تكن لتصل إليه بعد لولاها».

ويستنتج: «هذه هي قوة السلطة، التي يمكن ان تضربك كما أن تقنعك أيضاً».

ويضيف: «لقد عشت مثل هذه الشهادات غير العادية: حيث يعلو الصراخ والهتافات: «الموت للامبريالية».

... وينقلنا الصحافي الى صالون الدكتور فؤاد افرام البستاني، المطلّ على هذا البحر الملتهب، فيكتفي مؤرخ ومنظر «الجبل الماروني» بالقول، تعليقاً على المشهد، إن أميركا ليس لها جذور بينما الأرز له جذور».

ـ ٣ ـ

□ □ «انوار الشمس غائبة حتى إشعار آخر.
النجوم منطفئة،
تائهة في المدى الأبدي.
لا «سكة» لها ولا طريق.
الأرض كوكب جليدي اعمى،
يتأرجح في السواد الحالك،
في فضاء لا قمر فيه،
الصباح يتعاقب،
يوماً بعد يوم،
لكن النهار لا يأتي (...)
المدن المحترقة تتشابه،
والناس تتجمع أمام حطام منازلها،
تتبادل فيما بينها نظرات الوداع (...)».

□ □ هذه اللقطات الملحمية للشاعر الانكليزي الشهير لورد بريون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤م) يعلق عليها نبيل هادي بالقول:

إنه يصف حالة الكوكب الأرضي في أعقاب حصول كارثة طبيعية. وكتب قصيدته بعنوان (الظلمة) في أعقاب انفجار البركان «تامبورا» في أندونيسيا، في آب ـ اغسطس عام (١٨١٥م) والذي أدى الى نشوء طبقة من الغبار فوق سطح اجزاء هائلة من الكرة الأرضية، متسبباً في انخفاضات مخيفة بدرجات الحرارة. أما في العام التالي (١٨١٦م) فقد سيطر الصقيع على حالة الطقس في اميركا الشمالية

واوروبا الغربية خلال اشهر الصيف، مما أدى الى بوار للمحاصيل الزراعية، و «مواسم» من الجوع.. ومن الكوليرا..

والقصيدة كتبت على مقربة من بحيرة جنيف، التي ترمز اليوم الى النشاطات السلمية التابعة للأمم المتحدة وغيرها. وكم يبدو مدهشاً التشابه بين وصف الكارثة الطبيعية، الوارد في القصيدة الطويلة منذ ١٧٨ عاماً، وبين ما أصبح معروفاً اليوم بـ «الشتاء النووي» الذي قد ينجم عن حرب نووية، اذ يفيد كتاب صادر عن منظمة «الاونيسكو» الدولية بأن بعض «عوارض» الدمار النووي، منذ نهاية الاسبوع الأول عليها، هي الآتية:

- انخفاض هائل وثابت في الحرارة، يجعل الكوكب الارضي في معظمه مشابهاً للقطب الشمالي ولمدة سنة كاملة على الأقل!!.
- مئات الألوف من أطنان الغبار والدخان، الناجمة عن الحرائق على المستويات القارية، ستغطي السماء، فتنشأ طبقة كثيفة.
- الجو الأرضي سيصبح ساخناً على ارتفاعات عليا (حوالي مئة درجة) وبارداً في الأسفل (حوالي ٥٠ درجة تحت الصفر).
- التقلبات في مناطق الكوكب، ستجعل القارة الافريقية شديدة البرودة وشبه مستحيلة للعيش. وفي المناطق الاخرى فالوضع يتراوح بين الاستحالة والصعوبة الجدية.

والذين سيظلون قيد الحياة في «جزر» ومناطق معينة، لأسباب أو لأخرى، فسيكون عليهم أن يحفظوا أبيات الشاعر الانكليزي المذكور اعلاه، على سبيل التسلية او التعزية، اذ لن يكون لديهم نور طبيعي ولا اصطناعي، ولا أشجار وجنائن، ولا بيئة طبيعية صالحة.

قد تكون هذه اللوحة مفرطة في تشاؤمها.. إلا أن من الثابت، أخذاً بعين الاعتبار حجم وكثافة و «فعالية» الاسلحة التدميرية المتوفرة اليوم لدى الدول الكبرى وحتى لدى دول عادية، ان ما حدث في هيروشيما في نهاية الحرب العالمية الثانية كان، نسبياً، مجرد «لعبة أطفال».

أمام هذا التصور الدرامي الذي نرسمه مع نهاية القرن العشرين، نستطيع القول بأنه ما من احد سيبقى «محايداً» ازاء الصراع الدائر في العالم بخصوص مسألة نزع السلاح التدميري، ووقف التسابق الخطير الى اقتناء الاسلحة النووية واختبارها

وتخزينها... واننا نؤكد على مدى خطورة ما يجري من تغطية وطمس لمخاطر هذا التصعيد (ابرز قممه برنامج «حرب النجوم» الاميركي) وذلك عبر ذرائع شتى تطرحها الادارة الاميركية وحلفائها وشركاتها، وفي ظل نوع من الساديّة في التلذّذ بالقدرة على الابادة الجماعية للبشر، وتحت غطاء كثيف من الحملات الاعلامية التي تشنها الحكومات الاطلسية حول «مكافحة الارهاب».

ـ ٤ ـ

□ □ يقول الدكتور الحارثي:

«دون النظر الى الارهابية الفردية التي يتعشقها بعض المجرمين الهواة او المحترفين من سرقة او سطو او قتل من أجل تحقيق اغراض شخصية بحتة كالشهرة والثراء وغيرهما، هناك الارهابية الجماعية المنظمة التي تقوض كل عوامل هدوء انسان اليوم واستقراره».

□ □ يقول الكاتب الاديب سليمان سعد الدين:

«كثيرون هم الذين يخطئون التقدير فيظنون ان وراء موجة الارهاب التي تجتاح العالم اليوم شيئا يدعى التمييز الطبقي، فالذي يؤكده بعض المثقفين هو ان التناقض يحسم فعليا اي اصطدام، بينما التشابه هو الذي يوجد الالتقاء ثم التنافس وهذا التنافس هو الذي يوجد الصراع الذي بالتالي يكون الارهاب احد مظاهره او احدى وسائله في التعبير، وفي تقرير البقاء لما توافر لانسان المجتمعات الصناعية المتطورة، السبيل الأمثل للتساوي في حيازة الامكانات الفكرية والعقلية كان لا بد من يقوم رغماً عنه بتنظيم اوقح انواع التصفيات الجسدية التي عرفها التاريخ البشري حتى الآن.

ان الارهابية الفردية تأخذ نفس مستوى الارهابية الجماعية وعيا وتنظيما وتكتيكا، ولكن الفرق هو انه ليس لهذه الاولى دوافع مثالية لها جذور فكرية او سياسية او اجتماعية كما هو الحال للارهابية الجماعية.

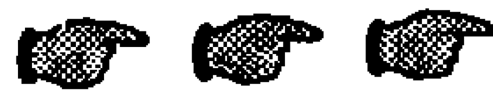
ان دوافعها عموماً هي خلاصة ايجابية لكل مشكلات وعقد الفرد المعاصر على الرغم من انها تفتخر بانها تحقق التكافؤ الامثل في القدرات والامكانات لكل الشعب.

نقول هنا باننا يجب أن لا نضخم من هذا النشاط الارهابي ولكن بنفس الوقت يجب ان لا نقلل من اهميته ونكابر على الخوف، فنحن نرى في كل لحظة لقطة ارهابية دموية خاصة في الدول الاكثر تقدماً والتي تدعي الرقي وتدعي التفوق في جميع المجالات، حتى اننا نندهش عندما نجد الصحف الغربية ومن كثرة المشاهد الارهابية والاجرامية لم تعد تهتم بها لانها باتت موادا غير مثيرة.

وهناك انواعا خطيرة من الارهاب وخاصة الارهاب المنظم الذي يمكن ان يهدم المجتمع بأكمله، فهناك ارهاب يقوم على فلسفة حرب التناقض الاجتماعي والذي نسميه الطبقات الى جانب فلسفة اخرى لنوع آخر، لكن لا يمكننا ان نطلق عليه اسم ارهاب وهو الذي يسعى الى التحرير والنضال من أجل استعادة ما اغتصب.

فنحن نسمع كثيرا عن الجيش الاحمر الياباني وعن جماعة بادر ماينهوف وجيش التحرير الايرلندي وجيوش ومنظمات اخرى... منها بعض المنظمات اليسارية الارهابية المتطرفة ايضا.

نحن نذكر بدون شك الصراع بين بعض المتطرفين في تركيا وكيف كان مستوى التعامل في هذا الصراع الخطف ثم القتل والذبح كل ذلك لا يمكننا ان نطلق عليه سوى انه ارهاب يتميز بالتضحية حتى الموت في سبيل تحقيق اغراضه .ولسنا في موضع بحث هنا عما اذا كانت هذه الاسباب عادلة ام لا؟ فإننا نبحث عن الارهاب بحد ذاته والوسائل التي يتبعها.»

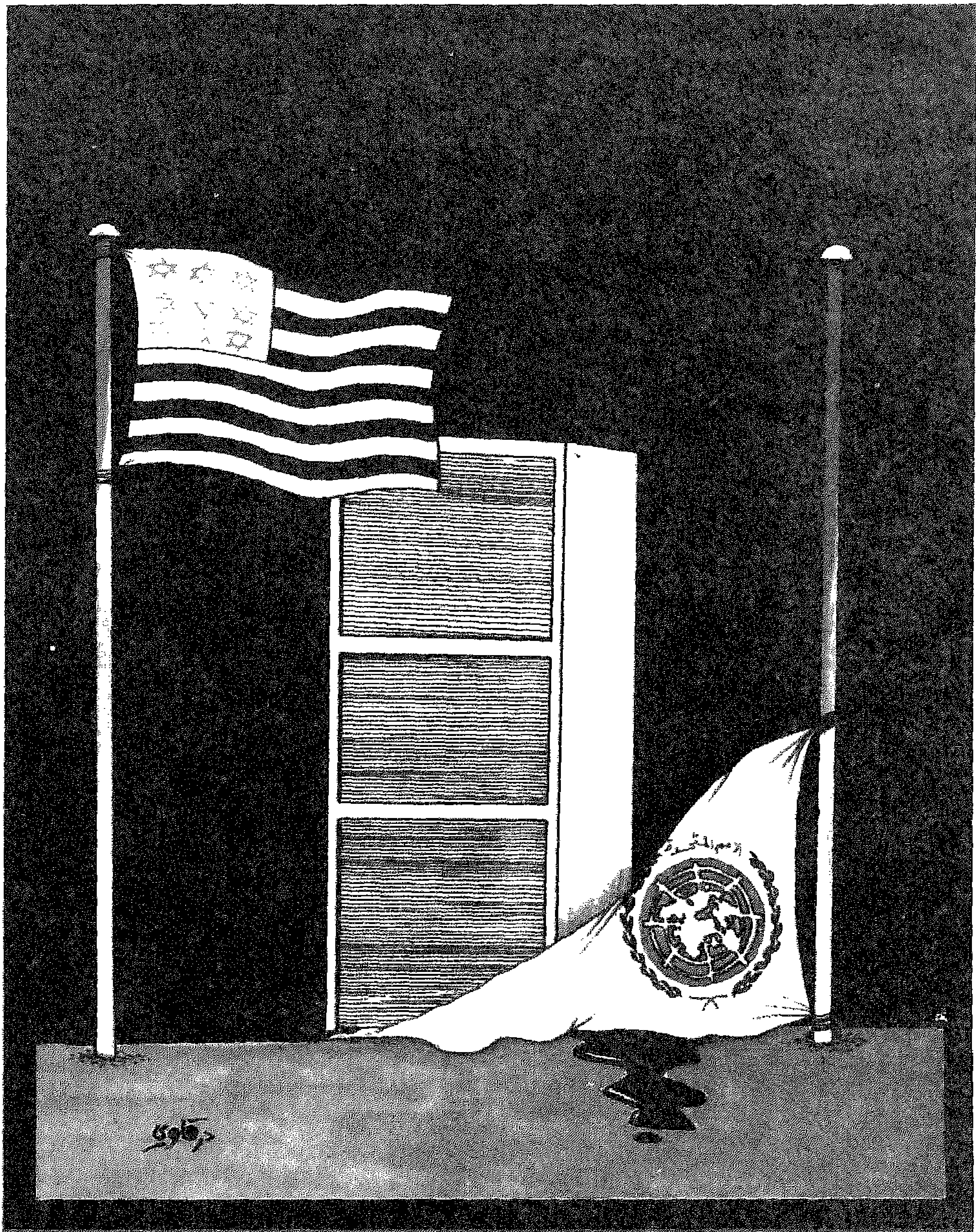


الفصل الأول

لماذا نتقتل أميركا؟

● ماذا حدث لهم..؟!
ماذا أصاب
«بلد الحريات» و«ملاذ كل البشر»؟

أ. س. س.


الأمم المتحدة

«أنتم يا من تحبون أخوتكم بني الانسان،
يا من تقفون في وجه الشر حيثما كان،
وتكرهون الطغاة.
انظروا حولكم:
كل ركن من أركان العالم القديم يجتاحه الظلم،
ويغتاله الشر والطغيان.
والحرية باتت طريدة على وجه الأرض:
طوردت في آسيا وفي أفريقيا.
أوروبا أوصدت الأبواب في وجهها، واعتبرتها
دخيلة
حتى انكلترا أنذرتها بالرحيل.
فافتحوا أبوابكم على مصاريعها لتستقبلوا الحرية الطريدة،
واجعلوا بلادكم ملاذاً لكل البشر.»

توم بين

ماذا حدث لهم،
أولئك الذين وجه اليهم «توم بين» هذه الكلمات المفعمة بالأمل
ماذا حل بهم،
أولئك الذين يحبون أخوتهم بني الانسان. ويقفون
في وجه الشر والظلم والطغيان؟
ماذا أصاب «بلد الحريات» و«ملاذ كل البشر»؟

شيء بالغ القبح، يتفجر من وجه أميركا ولم تكد تنقضي على صيحة «توم بين» مائتا عام.
انفتحت الأبواب على مصاريعها... نعم، ولكن.. لا لتستقبل الحرية الطريدة، بل لتتدفق منها جحافل التتار الجدد، تطارد الحرية على وجه

الأرض، في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، وفي كل ركن من أركان العالمين القديم والجديد.

وباسم أي شيء؟

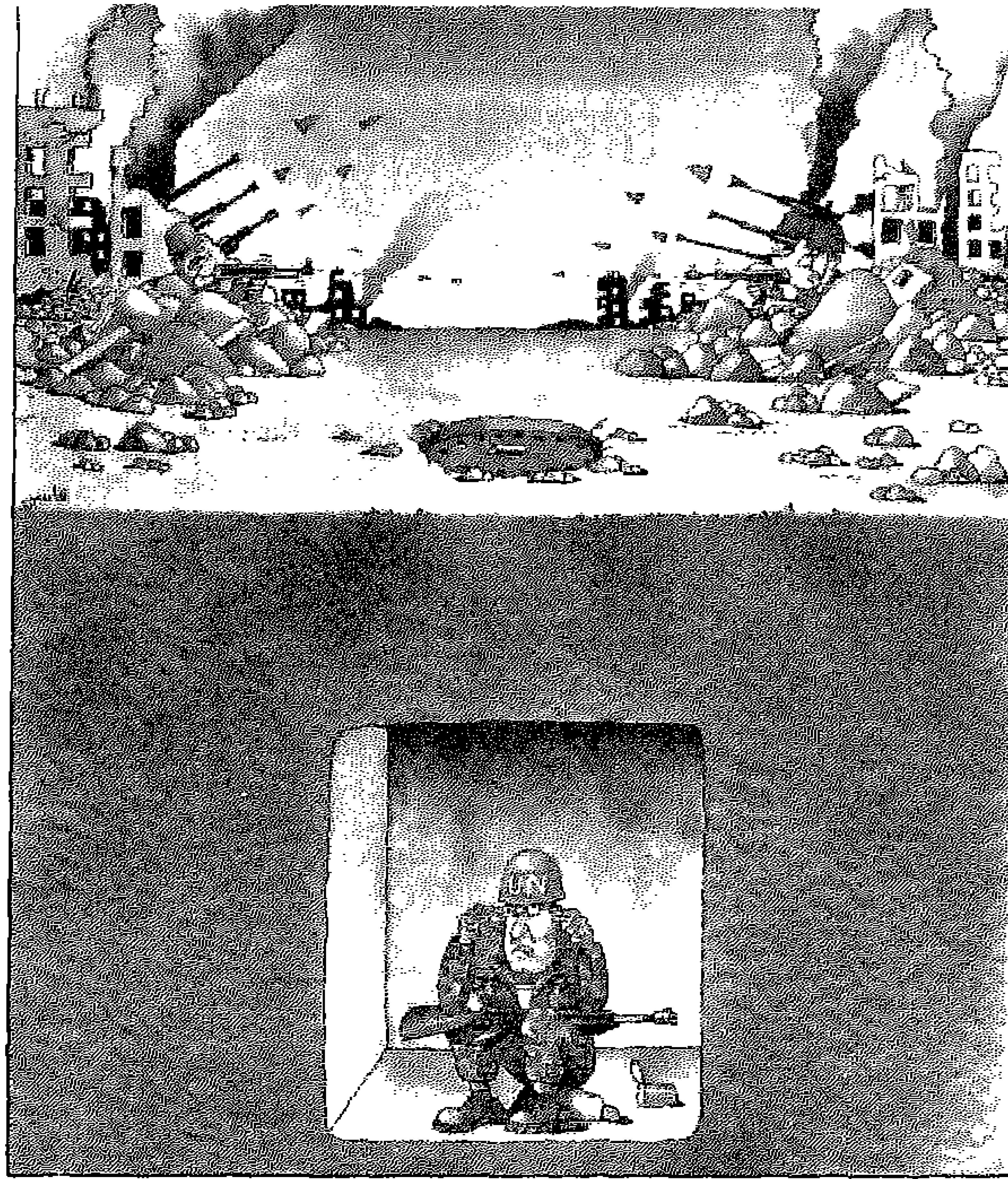
باسم الحرية، والعدل، وكرامة الانسان.

تحقق فيهم قول البير كامي:

«..عندما أنظر إلى الأيام المقبلة أشعر بالخوف.

ما أدرانا أنه لن يأتي آخرون، بشعون بعض الشيء، يتخذون من كل ما حلمنا به، وضحينا من أجله، مبرراً ليقتلوا دون أن يقتضي منهم ثمن جرائمهم؟!».





١ - مجتمع الجريمة المنظمة

ليس من شك في أن العنف من المكونات الأساسية للشخصية الأميركية، وهو - في معاملات الحياة العادية، لدى الأميركي العادي - مرادف للرجولة. أبسط ما يمكن أن تفعله لكي تكون رجلاً «يغطي الشعر صدرك» أن تلكم الآخر في أنفه، أو تهشم له أسنانه. ذلك هو الحد الأدنى ومنه تتدرج منحنيات العنف صعوداً، من المسدس ذي الطلقات الست الذي يقفز الى اليد في خفة «رائعة محببة للنفس» كخفة الحواة، طالما تغنت بها السينما الاميركية، الى القنابل الذرية، والهيدروجينية والنيترونية، وحرب الميكروبات والالكترونيات وحرب النجوم.

وليس من شك في أن أميركا تباهي أمم الأرض جميعاً بأعلى نسبة من القتلة المحترفين داخل حدودها: خمسة من القتلة لكل مائة ألف من السكان مقابل ١,٥ فقط في أوروبا واليابان.

بل ولا توجد دولة «متحضرة» أخرى يمكن أن تقارن بأميركا في مجال التنظيم والتمويل، والخبرة وحسن الادارة، والاستخدام الأمثل لأحدث المخترعات العلمية والوسائل التقنية.. في خدمة الجريمة.

فداخل الدولة في أميركا دول تتضاءل بجانبها بعض الدول الحقيقية، فلا تدانيها «تقدماً وعزة، ومنعة، وثراء» هي دول العصابات، أو كما تسمى وهي «دول» لها جيوش. دول «راقية ومتقدمة» للغاية، لديها وسائل اعلام، وأجهزة علاقات عامة، ويعمل في خدمتها علماء، ورجال سياسة، ورجال شرطة، ورجال قانون، ورجال مال وأعمال. فهي قد باتت من منظمات الأعمال الكبيرة، واكتسبت بذلك مكانة اجتماعية أوشكت أن تضعها، أو هي في سبيلها الى أن تضعها، على حدود المشروعية.

أليست تتعامل في البلايين من الدولارات؟!.

لكن هذا كله ذائع وشائع ومعروف. ليس فيه جديد. فالمجلات والكتب، والسينما، والصحف، ولجان الكونغرس ذاتها، تتحدث فيه، وتتناوله، وتحقق فيه،

وتتألم، له كل يوم. فهو ليس سراً. وكل مجتمع فيه الصالح والطالح. فيه أناس طيبون وأناس مجرمون. والشعب الامريكي شعب فتي، يمر بمرحلة «العنف» المعهودة. وهو - فوق هذا وذاك كله - شعب يغزو الفضاء، ويحارب الفقر والمرض، ويتخذ موضعاً رائداً في كل اقتحامات الجنس البشري لعالم الغد، وينجب فنانين، وشعراء، وعلماء، ويشتريهم أيضاً، وفيه أشياء كثيرة جيدة.

لكن ذلك كله، إن شراً وان خيراً، شيء يخص الشعب الاميركي وحده، ولا صلة له بالدور الحقيقي الذي تلعبه أميركا في عالم اليوم.

■ لماذا تقتل أميركا!؟

وقبل أن نحاول التمعن في ذلك الدور، يجدر بنا أن نجد أجوبة على أسئلة كهذه:

- لماذا تقف أميركا دائماً، وفي كل الأوقات، في صف جنوب أفريقيا وكل دولة عنصرية أخرى؟!.
- لماذا لا تضن أميركا بشيء، حتى دماء شبابها، في سبيل القضاء على كل حكم وطني في أية بقعة من بقاع العالم؟!.
- لماذا حاربت أميركا في فيتنام وفي كوريا، ولِمَ نجد لها اصبعاً في كل مؤامرة على الشعوب في العالم الثالث؟!.
- لماذا تهب أميركا دائماً لسحق كل محاولة تقوم بها «الشعوب المتقدمة» لتمنع تلك الجماعات المتأخرة من أن تخرج إلى ضوء الشمس وتعيش؟!.
- لماذا تضطهد أميركا عدة ملايين من الأمريكيين داخل حدودها لأن لونهم أسود، ولماذا تقتلهم، وتنكل بمهاجري بورتوريكو؟.
- لماذا اسرائيل؟ ولماذا تقتل أميركا العرب؟
- لماذا تحولت اميريكا من مؤيد الى اسرائيل إلى مشارك؟ احداث لبنان... الصورة والمثل؟!...
- لماذا تقتل اميركا الهنود الحمر في أميركا الجنوبية؟ ولماذا تجعل من جنوب تلك القارة كله معسكر اعتقال كبير؟؟؟!
  - أبمجرد التعصب؟
  - لمجرد القتل والتدمير والسلب والنهب كالتتار القدامى؟

- لمجرد اشباع نوازع العنف التي تعتبر من المكونات الأساسية للشخصية الاميركية؟
- للارهاب والسيطرة على العالم؟
- لتنشيط مبيعات الأسلحة الاميركية وأدوات الموت والدمار «الصناعية الكبرى في أميركا»؟!
- لمحاربة الشيوعية؟
- لحماية «العالم الحر»؟
- لحماية «الصهيونية»؟
- من قبيل همجية الانسان المتحضرة؟
- من قبيل التعصب الذي لا يسمح بالحياة لكل من لا يتكلم لغته، ولا يشبهه، ولا يفكر مثله؟

ربما.

قد تكون تلك كلها، أو بعضها، من الأساليب التي جعلت أميركا الفتية، المتحضرة، رائدة القفزة الانسانية الكبرى الى القرن الحادي والعشرين، تطالع العالم كله بهذا الوجه البشع.

لكنه يكون من السذاجة ـ وهي سذاجة باتت، في ظروف العصر مهلكة ـ أن نقنع أنفسنا، أو ندع أحداً يقنعنا بأن أميركا، بلد العلم، بلد التخطيط والاحصائيات، والمنحنيات والمعادلات ودراسة السوق والتنظيم الدقيق، يمكن أن تطالع العالم بذلك الوجه بهذه الدوافع وحدها.

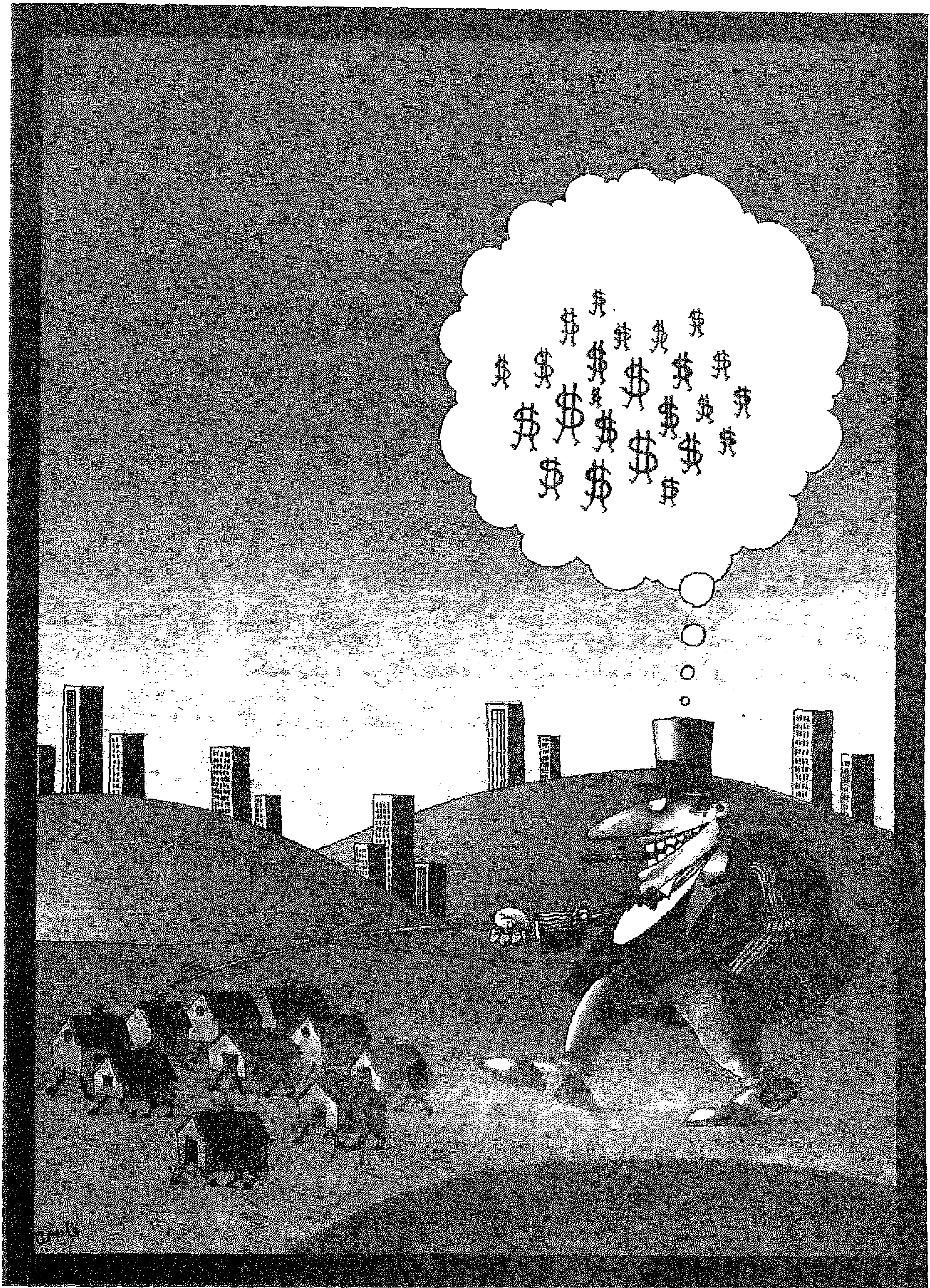
■ المغامرة الاميركية:

ولكن ما الذي تفعله أميركا؟

وهل نتجنى عليها؟

يذكرنا المؤرخون الأميركيون دائماً بما فعلته أميركا للعالم أجمع، فيستشهدون مثلاً بما قاله الرئيس روزفلت في رسالته عن الحرب العالمية الثانية:

«ان الهدف الذي ننشده بعيد كل البعد عن ميدان المعركة وفظاعاته. فنحن وقد أرغمنا على اللجوء الى القوة، نلجأ اليها وقد



عقدنا العزم على تسخيرها لتحقيق الخير المطلق للعالم أجمع والقضاء على الشر الذي بات يتهدده.»

ويضيف المؤرخون على أن الشر الذي يهدد العالم قد قضي عليه من قبل أميركا.. أميركا وحدها:

«ففي السادس من آب ١٩٤٥ ، خرجت طائرة وحيدة من طراز ب ٢٩ ، وحلقت في سماء مدينة هيروشيما، فألقت عليها قنبلة واحدة.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، ألقيت قنبلة ثانية على مدينة ناغازاكي.
فمحيت المدينتان من الوجود، وزاد عدد الضحايا عن مائة ألف.
وبذلك انتهت أفظع حرب عرفها الانسان.»

ولا ينسى المؤرخون الأميركيون أن يشيروا بعد ذلك الى أن تلك «الحرب» وضعت على عاتق الشعب الاميركي تبعة لم يعرف لها التاريخ نظيراً:

تبعة اعادة تعمير العالم الذي خربته الحرب واقامة صرح المدينة المسيحية الغربية من جديد، وتأييد «الشعوب الحرة» في كل مكان.

ويؤكد المؤرخون أن الشعب الأميركي قد استطاع أن يقوم بالكثير من تبعاته خير قيام:

«فأسهم بسخاء في اعادة بناء العالم الغربي، وأيد الديمقراطية والحرية في أرجاء الأرض».

● أي شيء أكثر من هذا يمكن أن يتوقعه انسان منصف؟

الحقيقة أن أميركا ظلت، حتى الكارثة التي حاقت بها في «بيرل هاربر» فأدخلتها الحرب بالرغم منها، متمسكة بهذا المبدأ الذي أرساه جورج واشنطن في «خطبة الوداع»:

«ان لأوروبا مجموعة من المصالح الأولية لا شأن لنا بها، أو هي - في أفضل الأحوال - واهية الصلة بمصالحنا الأميركية. وأوروبا، بسبب تلك المصالح الأوروبية التي لا شأن لنا بها، مضطرة الى الدخول في صراعات متكررة ليس من الحكمة في شيء أن نورط نحن الاميركيين أنفسنا فيها، لأنها بعيدة كل البعد عن مصالحنا».

لم تبدأ المغامرة الأميركية التي يعاني عالم اليوم ويلاتها، إلا بعد انتهاء تلك الفترة من البيات الشتوي التي عرفت باسم سياسة العزلة. ويخطيء من يتصور أن تلك الفترة انتهت بدخول أميركا الحرب راغمة نتيجة ليوم «٧ ديسمبر» المشهور في تاريخها. فهي لم تخرج من عزلتها حقاً، وتبدأ مغامرتها، إلا بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وانتبهت أميركا الفتية الثرية فجأة فاذا بالعالم كله حطام من حولها، بينما أراضيها ومصانعها هي لم تمس، واذا أغنى أمم الأرض تتسول قوت يومها بينما خرجت هي من الحرب أشد ثراء وأعظم تقدماً (في التكنولوجيا على الأقل) مما كانت يوم دخلتها. واذا بها، فوق هذا وذاك كله، ممسكة في قبضة يدها باوروبا المفلسة، الجائعة، المحطمة، المتهالكة، العارية، التي دمرتها الحرب، وباليابان، منافستها وغريمتها القديمة، واذا بالمد الاستعماري القديم ينحسر عن آسيا وأفريقيا، وبلدان هاتين القارتين الخارجة لتوها من مطحنة الاستعمار القديم تبدو كلقمة سائغة تنتظر من يقدم فيزدردها.

اذ ذاك أدركت أميركا عظم الفرصة التي اتيحت لها على غير انتظار، بما لم يتح لدولة أخرى قبلها في التاريخ: فرصة الاستيلاء على العالم بأكمله. وهكذا فانه عندما ارتفعت أصوات، في أعقاب الحرب، تنادي بالعودة الى سياسة العزلة، والانصراف الى مشكلات أميركا الداخلية، وأولها الفقر، أُخرست تلك الأصوات بسرعة وحزم، وانصرفت أميركا بكل قواها الى العالم الذي غنمته.

■ الرجال ذوو المعاطف البيضاء

- ما الذي تريده أميركا:؟
- السيطرة على العالم؟ ذلك الحلم المهلك القديم.
- حماية «نظامها الاجتماعي»؟ في عصر الوثبات التكنولوجية التي تخلف وراءها كل خوف أيديولوجي قديم؟
- «استنزاف ثروات الشعوب» في عصر الاستثمارات والتعاون الدولي في سوق دولية تخلق ظروفاً تتحقق في ظلها أرباح تفوق كل تصور لكل من الطرفين؟
- اعادة صياغة العالم كله وصبه في قالب طريقة الحياة الاميركية؟ في عصر المواصلات ووسائل الاعلام التي تهيء سبل الانتشار -

بل الاجتياح ـ الثقافي، بغير حاجة الى أن تتحرك أميركا خطوة خارج حدودها؟

● أم مجرد اثارة المتاعب وإحداث الشغب في انحاء العالم؟.

من المفيد ـ قبل أن نجيب على هذه التساؤلات ـ أن نسأل:

ما الذي يحدث في العالم اليوم؟

الذي يحدث في العالم اليوم تحفز لوثبة حضارية وشيكة لم يعرف العالم لها مثيلاً في تاريخه. قفزة مبهرة باعثة على الدوار الى عالم الغد.

ليس الفضاء وحده.

وليس التقدم العلمي أو التقني وحده.

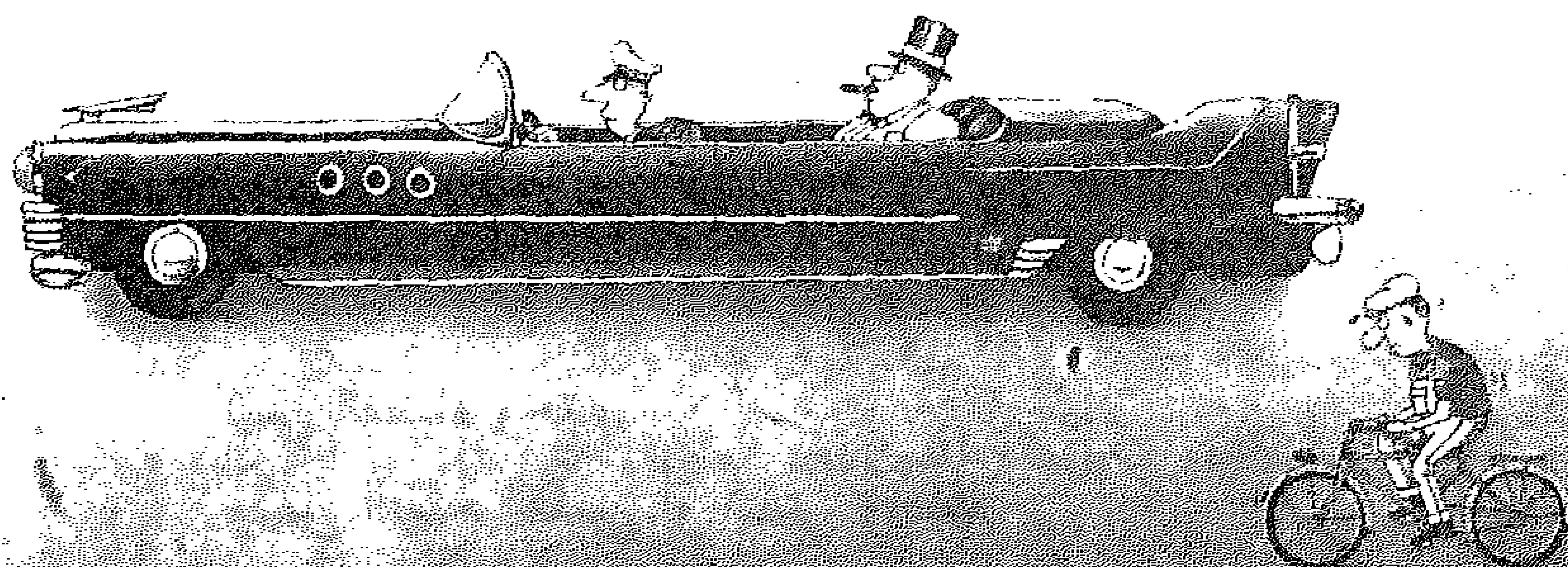
وليس الثراء، أو دخول عصر الفراغ الذي يعمل فيه الانسان ثلاثة أو اربعة أيام في الاسبوع على الاكثر، أو أي تقدم يخطر على بال أشد الحالمين تطرفاً. بل تغير كامل ـ خرافي ـ للعالم وللانسان الذي يعيش فيه.

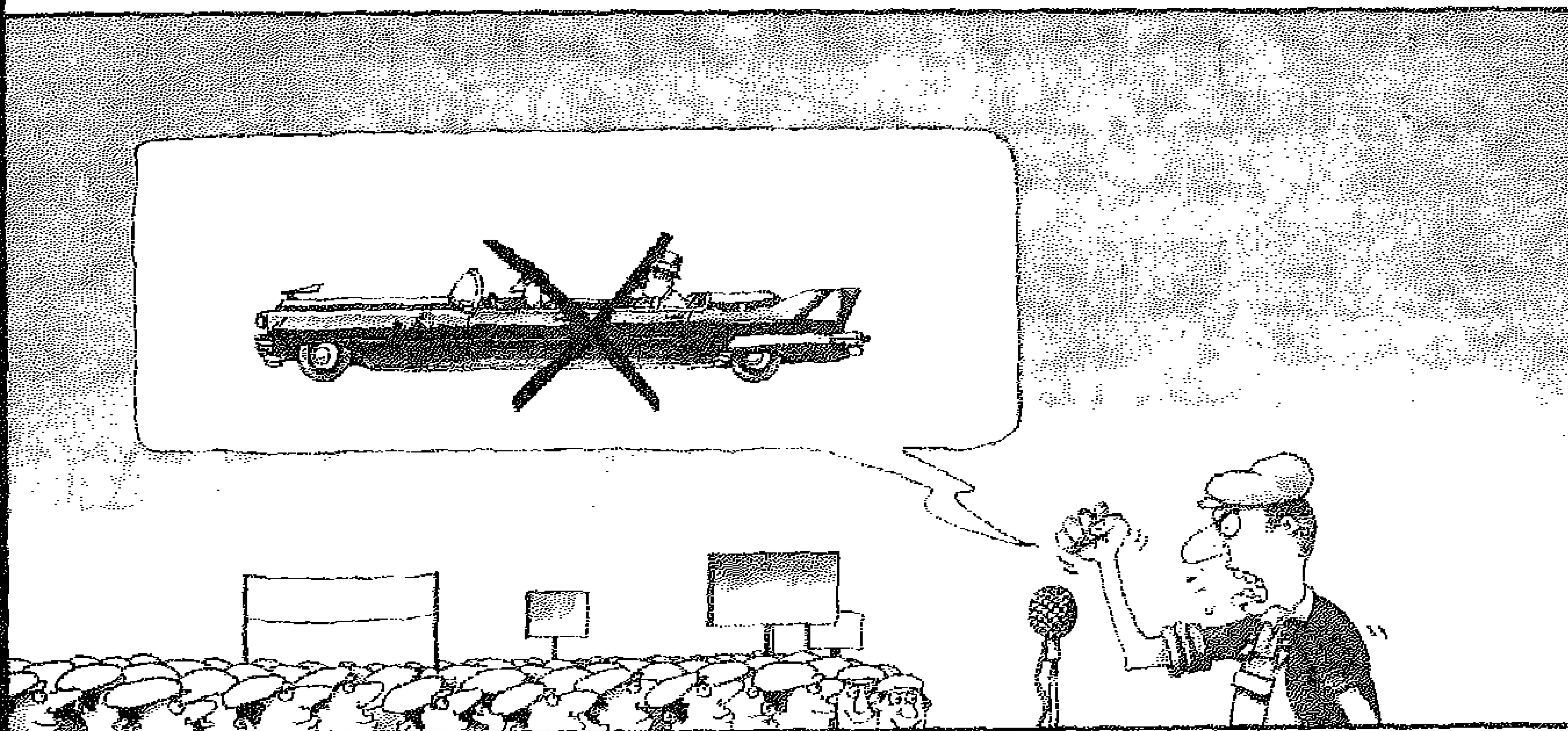
الحقيقة أن تغيراً قد بدأ فعلاً، وبدأت ملامح الانسان والعالم تبدو واضحة.

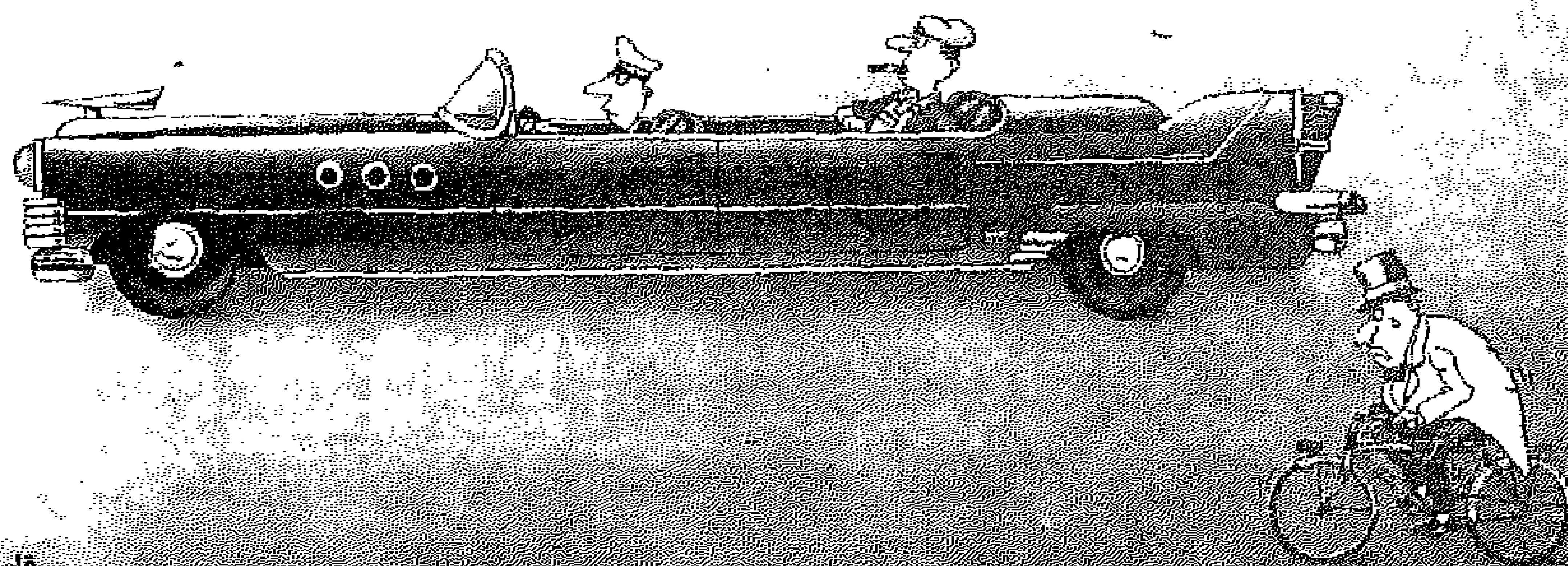
انسان عالم الغد موجود الآن بين ظهر انينا. في المعامل، بمعطفه الأبيض، وموضوعيته الهادئة الباردة التي تقيس كل شيء بالمسطرة الحاسبة، وتزن كل شيء بالميزان الحساس، وتفحصه بالمجهر وانبوبة الاختبار، وتتعامل معه بالاحصائيات، والمنحنيات، والمعادلات، واخضاع الوسائل للغايات. ذلك الانسان الجديد يعيش ويتكاثر بين غيره من البشر العاديين، في مدرجات الجامعات، في «المدن» المسورة المكهربة المحرمة التي يحرسها مئات الرجال المسلحين، في محطات الابحاث المنعزلة، في أعماق المحيطات، في السراديب التحت أرضية، والحجرات المغلقة، وعما قريب في مدن الفضاء التي ستقام على القمر.

ذلك الانسان الجديد عقلاني، ممعن في عقلانيته، علمي، تجريبي، لا يسخف من العاطفة، أو الانفعال فيه، كان يجلس بهدوء علمي في المعامل الملحقة بمعسكرات اعتقال النازي يشرح المعتقلين وهم أحياء ليدرس استجاباتهم للألم.

ذلك الانسان الجديد يعرف امكانياته جيداً، ويعرف ما هو مطلوب منه، ولديه تقدير على درجة كبيرة من الدقة لما يمكن أن يحققه، وتقدير متناه في الدقة بما






قاسم

يحتاجه، لكي يحقق ذلك الممكن الذي يستطيع أن يحققه، وليست لديه، في مقابل ذلك أية أوهام مضللة عما يمكن أن يتوقعه من الناس العاديين من فهم أو تعاون.

ذلك الانسان الجديد منتشر في كل أنحاء العالم. وهو أشد تركزاً في أميركا منه في أي مكان آخر من العالم. لكنه ، حيثما وجد ـ يحس الصلة الوثيقة التي تربطه بسلالته المتفوقة في كل مكان من العالم، ويحس بالفجوة المتزايدة العمق والاتساع التي تفضله عن سائر البشر.

وهو حيثما وجد، لا يحب أن يعلن عن وجوده، فيعمل ويتصل بمن هم مثله ويتعاون معهم في صمت وخفية ما استطاع، لسبب قديم وبسيط، هو أن الانسان العادي ينطوي دائماً على رعب حقيقي ممن يفوقونه في ذكاء وقدرات من أبناء نوعه الانساني، ويترجم ذلك الرعب دائماً في سلوك نمطي لم يتغير كثيراً من قديم، فهو يطارد أولئك المتفوقين ويحرقهم أو يقتلهم بمختلف الحجج والمعاذير التي قد تتغير من عصر إلى عصر لكن الغرض منها واحد، فهو مرة يتهمهم بالسحر، ومرة بالكفر أو الزندقة، ومرة بالخيانة، المهم أن يحرقهم.

«غاليلو» لو لم يتراجع وينكر. ما الذي كان سيحدث له؟ لقد أدرك الرجل في عصره حقيقة ذلك الثأر القديم بين القطيع وبين المتفوقين فتراجع بسرعة أمام الكهنة وأبقى بذلك على حياته..

وما من شك في أن التنظيم الدقيق للمجتمعات المعاصرة يمنع تكرار مثل تلك الأفعال الهمجية الساذجة.

فلا أحد يتصور أن يجتمع عدد من الناس الآن على واحد منهم عبقري ليحرقوه بتهمة السحر أو الكفر عندما يقفون على سر من أسرار تجاربه.

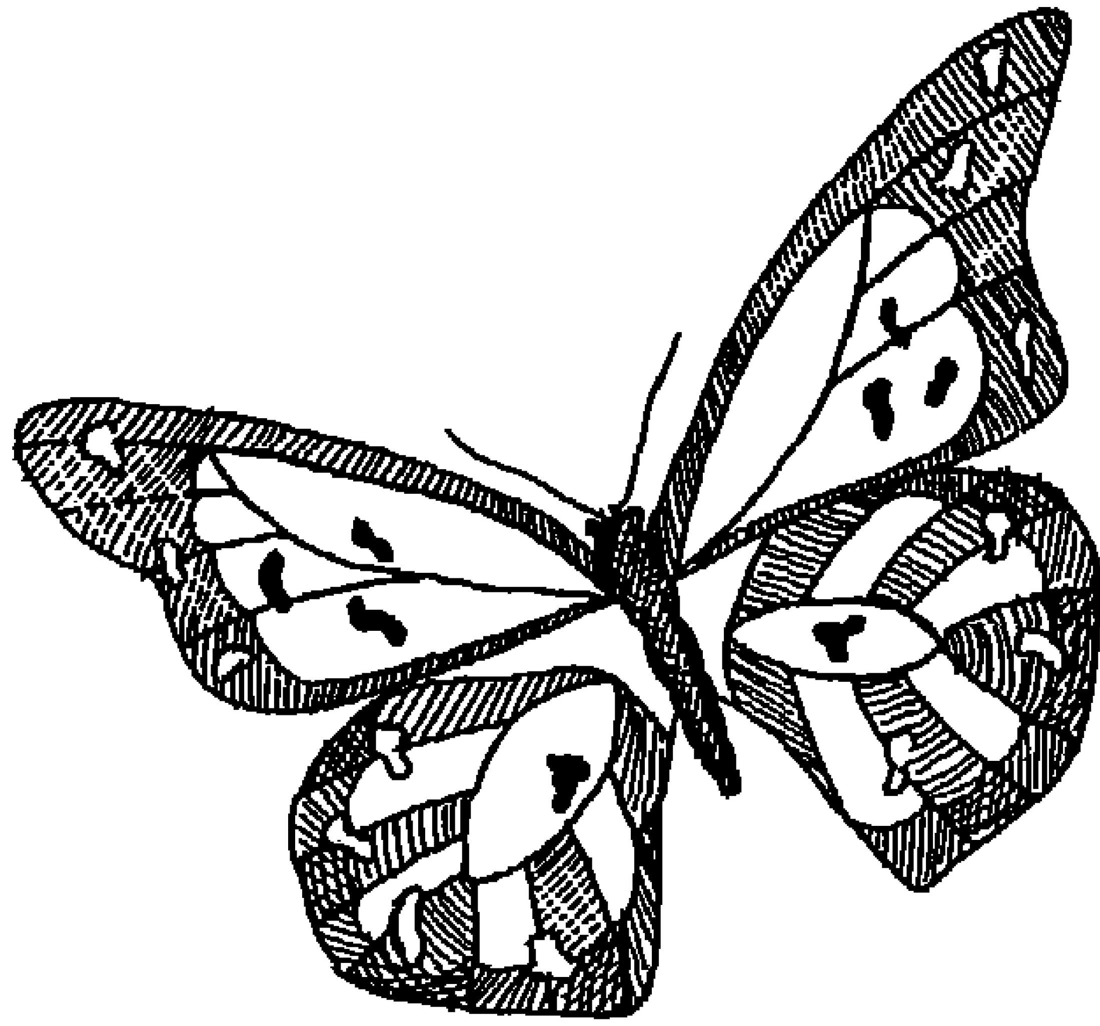
لكن الذي يمكن أن يحدث فعلاً هو أن يزج أولئك الناس بأنوفهم ـ بما لهم من قوة جماعية ندعوها «الرأي العام» ـ في عمل ذلك المتفوق، فيشكلون بذلك معوقاً كبيراً يربك خطاه.

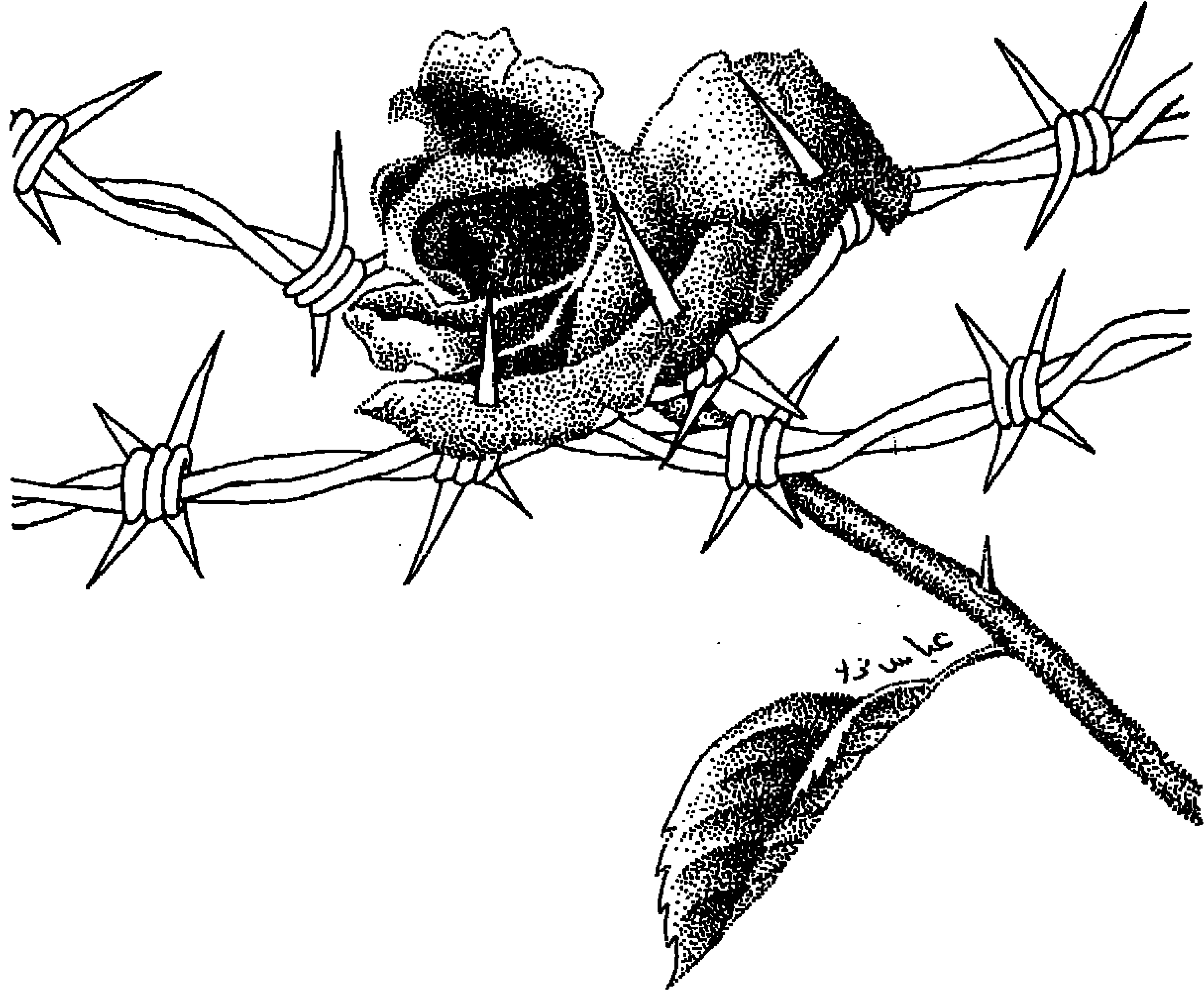
كتلك الضجة التي حدثت مؤخراً حول أسلحة الحرب التكنولوجية والكيمياوية والنيترونية مثلاً.

انسان الغد ذاك، الذي يعيش بين ظهر انينا في كل مكان من العالم، ويتركز بشكل خاص في أمريكا ـ يعمل في شبه خفاء اذن ـ فلا يدري العالم عن عمله وأهدافه وكشوفه إلا القليل.

انسان الغد ذاك، تتعاون معه في اميركا، وتموله، وترعاه، «وكالات» تعلو حتى
على أجهزة الحكم التقليدية:

تروتستات وكارتلات تخطط للحروب في بقاع العالم، وتعمل
على قتل من يعمل ضد سياستها، أو من يقف في وجه مخططاتها...
هي لا تتوانَ عن قتل أيٍ من البشر وإبادته اينما كان وأينما وجد خارج اميركا
وحتى داخلها.





الفزاة

منذ بضع سنين، نشر الكاتب الأميركي فردريك براون وهو من كتّاب الخرافة العلمية، القصة التالية التي نعرضها كما هي دونما أي تغيير.

قالت مس ميسي باستغراب:

ـ لماذا يريد الجميع أن يجعلوا من الحبة قبّة؟ إنهم لا يضايقوننا في شيء.

في المدن كان ذعر حقيقي. أما حديقة مس ميسي فسادتها السكينة. رفعت عينيها بهدوء تتأمل الغزاة العمالقة. جاؤوا من الفضاء الخارجي في مركبة فضائية ضخمة هبطت برفق في الصحراء، ثم خرجوا من سفينتهم وأخذوا يتجولون في كل مكان والناس يبدون بالمقارنة لهم كالحشرات.

لكنهم، كما قالت مس ميسي، لم يسيئوا إلى أحد، ولم يسببوا أضراراً للممتلكات. كل ما في الأمر أنهم لم يلقوا الى البشر بالاً. ولقد بدوا كما لو كانوا لم يحسوا بوجود الناس أصلاً، وباءت بالفشل كل المحاولات التي بذلت للاتصال بهم أو التفاهم معهم، كما فشلت أيضاً المحاولات المحمومة التي قام بها الجيش بعد ذلك للهجوم عليهم بالمدافع وقاذفات القنابل ثم بالقنابل الهيدروجينية. كل تلك الأشياء لم تصبهم بأذى ولم تفلح في زحزحتهم، أو حتى في إزعاجهم.

قالت مس ميسي لأختها:

ـ وذلك في ذاته دليل على أنهم لا ينوون بنا شراً، أليس كذلك؟.

فقالت أختها:

ـ أرجو ذلك. ولكن ما هذا الذي يفعلونه الآن؟

كان اليوم مشمساً لا غيم فيه، ورؤوس الغزاة العمالقة تبدو كما لو كانت السماء عميقة الزرقة. لكن الشمس بدأت تتوارى، وغيم متكاثف حجب زرقة

السماء. رفعت مس ميسي رأسها تنظر إلى حيث أشارت أختها، فرأت اثنين من الغزاة ويبدو كل منهما شيء كالخزان تخرج منه سحب متتابعة من بخار أبيض يهبط على الأرض ببطء.

قالت مس ميسي ضاحكة:

يصنعون سحباً.

قد تكون تلك طريقتهم في اللهو وتمضية أوقات الفراغ.

آه.

لا تستطيع هذه السحب أن تضرنا.

لا أدري لم يتوجس الجميع منهم بهذا الشكل.

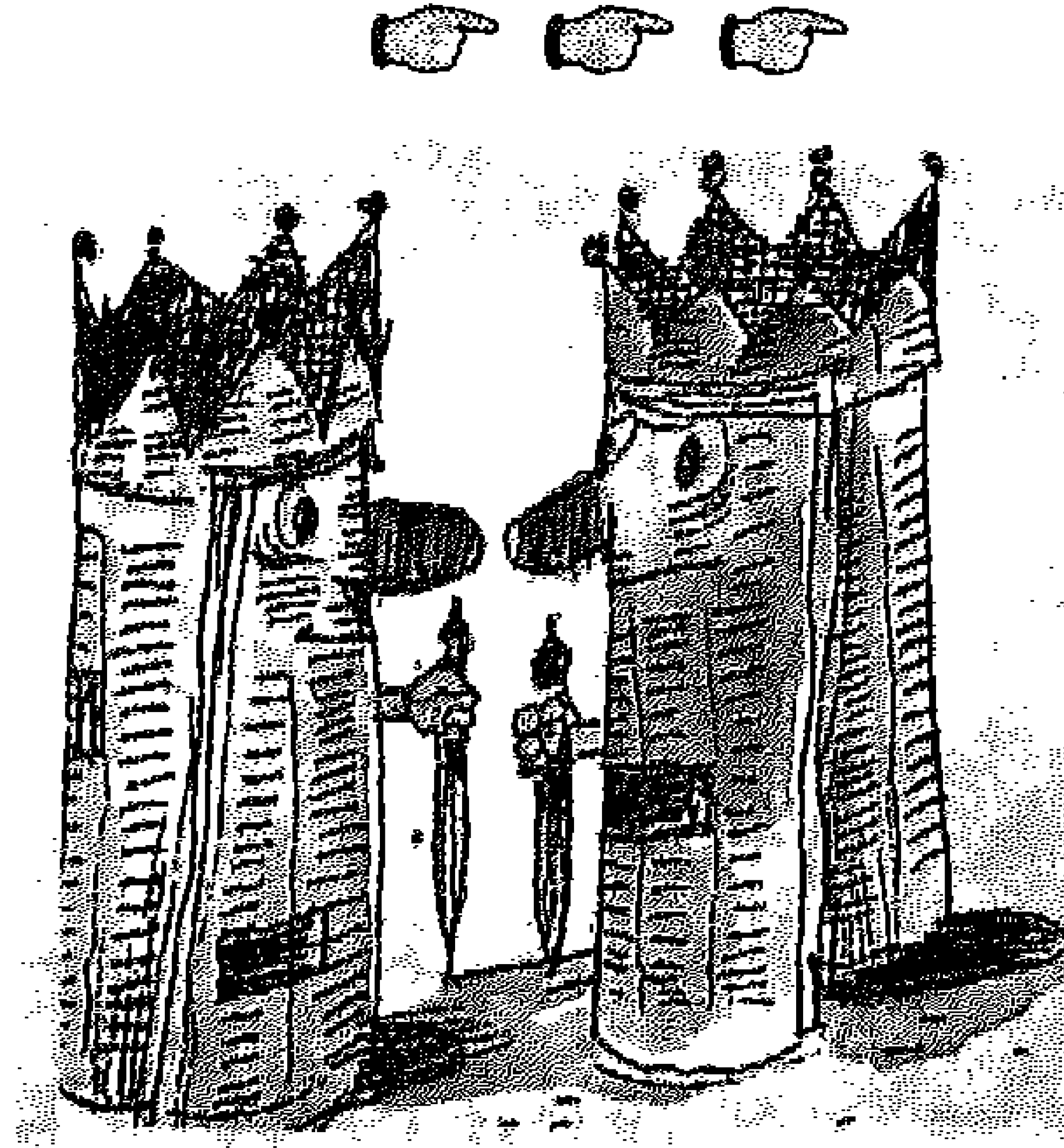
عادت إلى عملها، فسألتها أختها:

ما هذا الذي ترشينه يا أماندا؟ سماد سائل؟

فأجابت مس ميسي وهي تخرج سحباً من دخان أبيض من خزان في يدها تهبط ببطء على الأرض:

كلا. مبيد حشري.

☞ ☞ ☞



المجاعة قادمة

الكلام كثير في هذه الأيام عن الانفجار السكاني. وهو خطر حقيقي يتهدد البشرية بغير شك. لكننا كلما تحدثنا عن ذلك الانفجار السكاني فاتنا أن نذكر القس «مالتس» ويفوتنا ذلك لأسباب عديدة، أهمها اننا ـ كبشر ـ سريعو التصديق، سريعو النسيان. كل ما قيل لنا ويقال عن التقدم وأخوة الانسان نصدقه بسهولة، كل دروس التاريخ عن وحشية (اخوتنا) البشر وما يمكن أن تتخذه تلك الوحشية من أشكال ننساه بسهولة. فوق أنه لم يعد هناك الآن من يصدق نظرية مالتس، فقد أثبت الاقتصاديون أن الرجل كان مفرطاً في تشاؤمه، وانه ـ وقد وضع نظريته في أخريات القرن الثامن عشر ـ لم يأخذ في حسبانه التقدم العلمي وما يمكن أن يحققه من طفرة في الانتاج تلغي فعالية قانون تناقض الانتاجية التي صدر عنه في وضع يمكن أن يباشره من تأثير على المتغيرات الأخرى في المشكلة (وهي متغيرات تؤثر، بدورها، فيه) بما يؤدي الى انخفاض معدلات المواليد كلما ارتفع مستوى المعيشة وزاد متوسط الدخل.. الى آخر تلك الأخطاء التي وقع فيها القس مالتس.

ونظرية مالتس ببساطة تقول أن السكان يتزايدون بنسبة متتالية هندسية كل خمسة وعشرين عاماً، بينما لا يتزايد انتاج الطعام في نفس الفترة الزمنية إلا بنسبة متتالية عددية، فيقضي ذلك في النهاية، بطريقة حتمية، الى المجاعة والفناء.

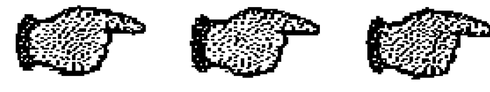
والذي يفوتنا أن نذكره أنه وإن كان علم الاقتصاد الحديث يرفض مقولات مالتس فان الاستراتيجية الحديثة يمكن أن تخلق ـ صناعياً ـ ظروفاً تتحقق فيها النتائج المالتوسية بحذافيرها:

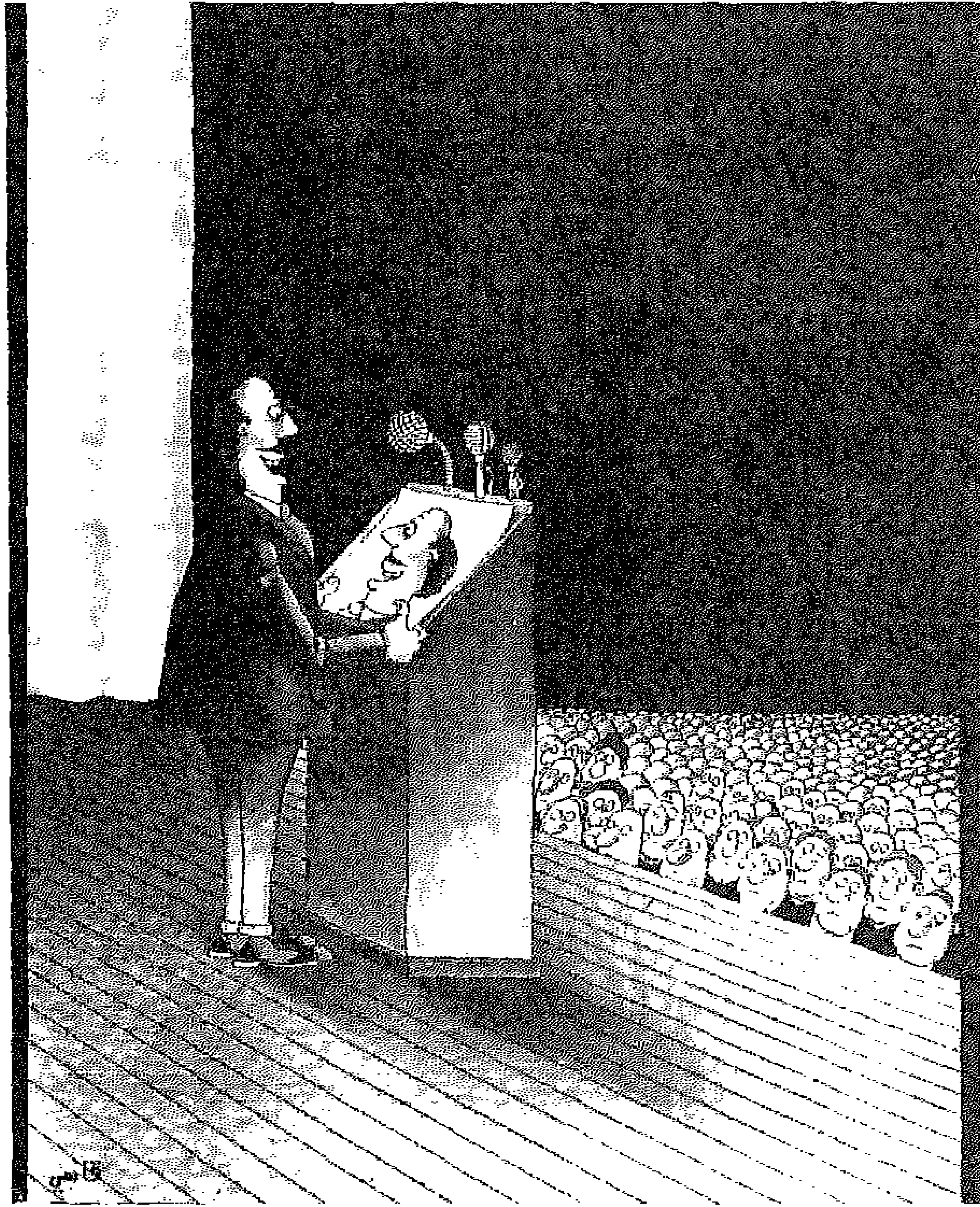
المجاعة والفناء بالقاء فائض الأغذية في البحر مثلاً، أو منعه بمنتهى الأدب عن الشعوب المراد تجويعها (كما حدث بالنسبة للهند وغيرها) أو اعاقة التنمية الاقتصادية في تلك البلدان جملة (على النحو الذي اتضح في مؤتمر نيودلهي).

وفي بلدان يعينها باستخدام وسائل الحصار الاقتصادي والعدوان العسكري، وترك الأمر بعد ذلك للانفجار السكاني، وهو ـ بحكم التخلف وانخفاض مستوى المعيشة ـ على أشده في تلك البلدان، ليفعل فعله، تماماً كما تنبأ مالتس.

بمعنى أنه ان كان التقدم العلمي والتقدم الاجتماعي يوقعان تحقق الترتيبات المالتوسية، فما على الراغب في احداثها إلا أن يوقف ذلك التقدم العلمي والاجتماعي وترك الباقي للمعادلة المالتوسية العتيدة.

يتنبأ علماء ومتخصصون بمجاعة عالمية قادمة الينا، وتدعم تلك التنبؤات احصائيات وجداول تحدد على وجه اليقين شعوباً ستموت جوعاً بلا مهرب.





أورول ١٩٨٤

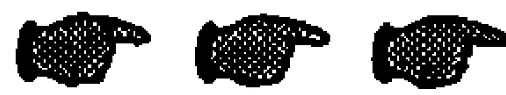
عندما كتب المؤلف الانكليزي جورج أورول كابوسه الانساني الذي نشره بعنون «١٩٨٤»، لم يقتصر رؤياه على أزمة الحرية والقيم الانسانية في الدول المتقدمة تكنولوجياً، بل امتدت إلى أزمة أبشع:

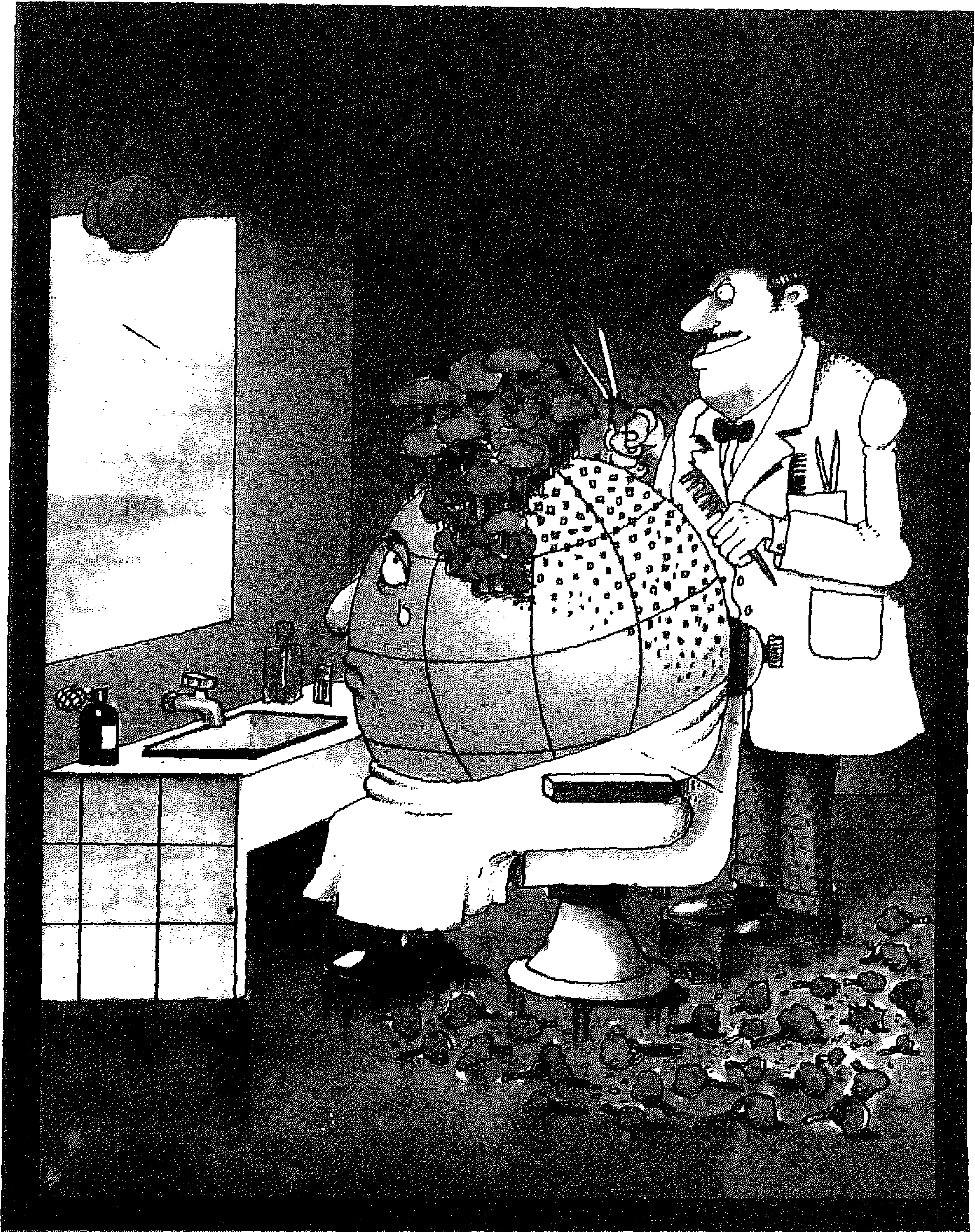
أزمة الشعوب التي لم تلحق بركب ذلك التقدم في آسيا وأفريقيا.

فقد انتهت تلك الشعوب - في رؤيا أورول - الى مستوى لا انساني من التخلف والرق والسخرة في خدمة الدول المتقدمة التي تتنازعها وتتنازع أراضيها بحروب متصلة فيما بينها.

والمشاهد طبعاً أن المؤلف الانكليزي رغم اخلاصه، ورغم انشغاله الاخلاقي الواضح بمصير الانسانية لا يتوقف طويلاً عند ذلك المصير الذي يتنبأ به لتلك الشعوب، وكأنه أمر محتوم، ولا جدوى من التوقف عنده. ولا كبير أهمية لذلك، إلا ما يعكسه ذلك الموقف من نظر متأصل من الفكر الغربي - حتى الانساني منه - تجاه الشعوب التي تختلف لوناً، وفكراً، وحضارة عن الغرب.

كما أن تلك الرؤى كثيراً ما تكون سباقة إلى ادراك ما يمكن أن يحدث فعلاً متى توفرت ظروف بعينها - المهم أن الفجوة الحضارية بين «التقدم» و«التخلف» تزداد اتساعاً وعمقاً من يوم الى يوم، وأن موقف اميركا والدول التي تدور في فلكها من قضية التنمية في العالم الثالث من أخطر العوامل المؤدية إلى اتساع تلك الهوة.





من يملك ومن لا يملك

يبدو الآن لو كان النوع الانساني قد انقسم - من وجهة النظر الأميركية - الى نوعين متمايزين:

نوع يمكن أن نسميهم «الذين لديهم»

ونوع آخر اسمه «الذين ليس لديهم»

وليست المسألة قاصرة على مجرد الثراء - على مستوى الدول فهي منصبة على امكانية الانضمام أصلاً إلى نادي القرن الحادي والعشرين:

نادي البقاء، فيما يراه واضعو الاستراتيجية الاميركية.

ليس في الأمر غموض. فالوثبة الحضارية المقبلة - إلى الفضاء وعالم القرن الحادي والعشرين تتطلب تركيز موارد العالم أجمع - البشرية والطبيعية - وتجميعها بما يتيح تحقيق تلك الوثبة. وما عملية «استنزاف العقول» التي تقوم بها اميركا وبعض الدول الدائرة في فلكها تحت اسم الهجرة إلا مرحلة من مراحل ذلك المجتمع. مرحلة يتم فيها استخلاص كافة العناصر البشرية (من علماء ومتخصصين) القادرة على الاسهام في الجهد الخارق الموجه الى تحقيق ذلك الاقتحام الوشيك لعالم الغد. وهي عملية ذكية. لأن إعداد أولئك العلماء المتخصصين يحمل الدول التي ينتمون إليها تكلفة لا يستهان بها، ولا يكلف الدول المستوردة لهم شيئاً، إلا ما تتكلفه فترة وجيزة من اعادة التدريب والتوجيه في مجال الاختصاص. وبذلك يتحقق هدفان:

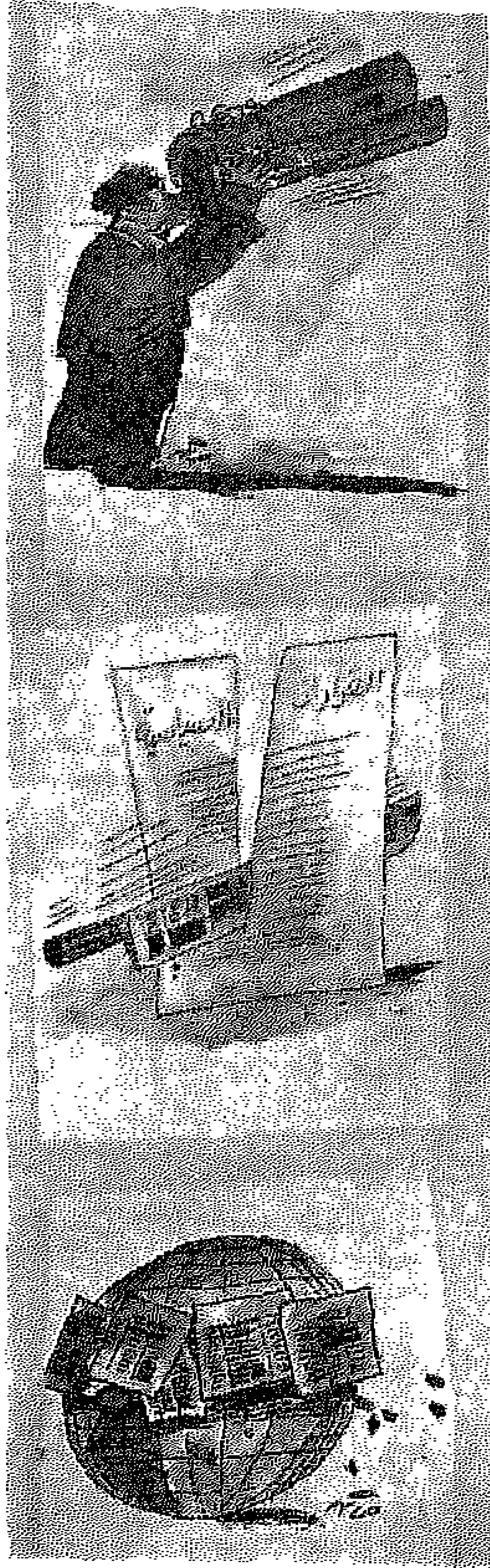
أولهما: تعويق متزايد للتنمية في الدول التي تستنزف منها تلك العقول.

وثانيهما: انقاذ تلك العناصر البشرية المتفوقة من المصير الذي يبدو أنه ينتظر الشعوب التي تنتمي اليها.

أما الموارد الطبيعية، فلا مناص من أن تستغل حيث أوجدتها الطبيعة لأنه ما من سبيل الى نقلها. وهي موارد لابد من الوصول الى الاستخدام الأمثل لها حتى يتكامل تجميع موارد العالم كله وتوجيهها الى تحقيق الوثبة الحضارية. لكن المشكلة هنا تتعقد، اذ تتدخل فيها عوامل معاكسة كتيار التحرر الوطني، واليقظة القومية،

ورغبة بعض الشعوب في أن تمسك بيدها زمام أمورها. ذلك التيار المعاكس ليس قاصراً على دول العالم الثالث. فقد بدأ يتضح في أوروبا ذاتها، منذ وقفة الديغولية من الاجتياح الاميركي. لكنه في آسيا وأفريقيا يمثل خطراً حقيقياً على المصالح والمخططات الاميركية لا يمكن السكوت عليه. ومن هنا كانت الكوارث، والحروب، الانقلابات التي توالت في بلدان هاتين القارتين.







التعصب العرقي

ليس التعصب العنصري شيئاً جديداً في التاريخ الحديث:

ألمانيا الهتلرية جرت العالم الى حرب من أفظع ما عرفه من حروب بفضل أسطورة الجنس الآري.

وأميركا بدأت وجودها بإبادة الهنود الحمر، لحساب الجنس الأبيض.

يقول «أرنست كاسيرير» أن عبادة البطولة التي عرفها العالم القديم (والتي حاول بعثها كارليل ونادى بها علاجاً لا دواء العصر) حلت محلها، في عالمنا المعاصر، عبادة الجنس، بشكل يحقق أشد أحلام الارستقراطي الفرنسي «جوبينو» تطرفاً.

«جوبينو» الذي وصف الجنس الأبيض بالألوهة وقال عن كل ما عداه من أجناس أنها:

«في تكوينها الجسدي:

دون مستوى القردة.

وفي استسلامها لغرائزها:

أسوأ من الحيوانات الضارية.

وفي ضعة أخلاقها:

تقل شيئاً عن أبالسة الجحيم».

لكن ذلك ليس أهم ما في الكونت جوبينو: أهم ما عنده نظريته في الحضارة والأجناس فالتعاون بين الأجناس يعني التعايش.

«التعايش بين جنس خالص أسمى وأجناس دنيا في مستوى السائمة».

والتعايش يعني اختلاط دماء الأجناس، ذلك الاختلاط يعني التدهور والفساد. وهو دائماً بداية النهاية لأن الجنس الأسمى لا يكاد يفقد نقاءه حتى يضمحل، ويفقد

قوته وقدرته على الخلق والتنظيم، وينزل الى مستوى الأجناس الدنيا، وبذلك تموت الحضارات.

لا مفر اذن، للحفاظ على الحضارة، من عالم الجنس الواحد. عالم الجنس الأسمى. لكن أميركا خاضت حرباً ضارية ضد النازيين أصحاب اسطورة ذلك الجنس الأسمى، وأميركا ذاتها ليس فيها جنس أسمى، فهي خليط من أجناس وشعوب وثقافات عديدة.

ومع ذلك، فكلمة «الجنس» هذه مطاطة للغاية لأنها، في حقيقة أمرها، كلمة غير واقعية اعتسافية، لا تعبر عن حقيقة موضوعية (وهو ما تقرره مجموعة العلوم الانسانية التي باتت ترفضها أصلاً) فهي كلمة لا تستعص على التطويع.

وهكذا أمكن أن يتخذ مفهوم الجنس عند جوبينو والنازيين شكلاً جديداً وأبعاداً جديدة.

(وان ظل المضمون واحداً:

جنس سيد وأجناس من العبيد)

ظل طبعاً ـ وبالضرورة ـ قائماً على خصائص جسدية بعينها، أهمها اللون الأبيض، مع التغاض عن حكاية الدم الآري الخالص، اذ يمكن تمشياً مع حكم الضرورة ـ أن يتسع ذلك المفهوم لدم جديد يكون خليطاً من دماء عدة شعوب. فهو مفهوم زائف من أساسه، وليس ما يمنع من تعديله وادخال اضافات عليه:

بدلاً من السلالة، يوضع معيار الانجازات الحضارية.

وبذلك يصبح الجنس السيد الذي تستند اليه العنصرية الجديدة صورة مؤلهة للانسان الأوروبي الأميركي الأبيض، الذي سبق سائر البشر.

لأنه استعمر سائر البشر طويلاً،

في مجال التقدم العلمي والتكنولوجي، الانسان الذي نراه يتقارب، ويوحد موارده وطاقاته استعداداً لوثبة حضارية لم يسبق لها مثيل، لم تعد متطلباتها تسمح له بأن يدع غيره من البشر يعوقون انطلاقه بتخلفهم

(حتى ولو كان السبب الأول فيه)

وحاجتهم الى من يساعدهم على التقدم، وعدم قدرتهم على الاستغلال الأمثل لمواردهم الطبيعة التي لا غنى لتلك الوثبة الحضارية الوشيكة عنها.

استراتيجية التتار الجدد

ليست حركات الابادة شيئاً جديداً في تاريخ الانسان. فهي قديمة قدم التعصب في كل أشكاله.

كلّ مَن يختلف عنّي ليس منّي، فاقتله
لأن العالم لا يتسع لي وله:

العالم وجد لي ولمن هم مثلي.

لكن الابادة كمفهوم الجنس الذي تم توسيعه وتطويره ليلائم مقتضى الحال، مرت هي الأخرى بمرحلة تطوير وتعديل في الوسائل، لتلائم ظروف العصر.

الخطأ الذي ارتكبه الهتلريون أنهم زاولوا الابادة بطريقة مكشوفة مركّزة داخل حدودهم، مما أثار عليهم ثائرة العالم أجمع.

ما الذي يمنع من ابادة الشعوب في مواطنها، بالتحكم البعيد، خاصة في عصر الأمم المتحدة (كما يباد الشعب العربي الفلسطيني الآن تحت سمع العالم وبصره، وتباد المقاومة الفلسطينية... بالتحكم البعيد) والشعارات الانسانية، و«الرأي العام العالمي» الذي لم يعد يسمح بتكرار التجربة النازية الفجة؟؟؟! (وعمليات الابادة الجماعية في البوسنة والهرسك ومناطق عدة من العالم).

فوق أن التجربة النازية كانت محددة للغاية اذا ما قيست بأبعاد مخطط الابادة الذي بدأته العنصرية الجديدة.

والآن فلننظر في بعض أركان العالم:

● داخل حدود أميركا يقاتل الزنوج قتالاً مستميتاً في حرب بقاء مفروضة عليهم فرضاً:

عشرون مليوناً في وجه الشعب الأميركي بأكلمه
الذي يعلّم أطفاله الكراهية ويعلّمهم القتل من
سنيهم الأولى.

- على حدود أميركا حملة إبادة منظمة، في حوض الأمازون، لشعب بأكمله من الهنود جملة، تستهدف اتمام ما بداه الغزاة الأوربيون منذ عهد كورتيز، وتكرار ما فعله الأميركيون في شمال القارة، قضاء على هذا الشعب الذي حرم من أرضه وجرد من حضارته العريقة، وحوّله سادته البيض الى مستوى السائمة، وانقلبوا الآن يجهزون عليه.

تلك المذبحة الدائرة في أمريكا الجنوبية تحت سمع العالم «المتحضر» وبصره دون أن يحرك ذلك العالم ساكناً، حركت ضمائر بعض الكتاب الأحرار كـ «لوسيان بودار» و«جاك موينيه» و«آن ماري سافران»، كما حركت مذابح الأفريقيين ضمير الكاتب المسرحي «بيتر فايس» فكتب مسرحية «أنغولا» أو «الغول» ففعلوا ما أمكنهم أن يفعلوه:

قاتلوا بالكلمة المكتوبة دفاعاً عن تلك الشعوب التي تباد.

وانتهى الأمر عند ذلك الحد.

- في أميركا اللاتينية، في جنوب أفريقيا، في روديسيا، في أركان عديدة خفية يخيم عليها الصمت «من القارة المظلمة» تجري عمليات ابادة مدروسة منظمة.
- في آسيا وأميركا الجنوبية، تنتشر جحافل التتار الجدد تنفذ مخططات العنصرية الجديدة ووراءها الرجال ذوو المعاطف البيضاء، بتصميماتهم لعالم الغد، باحصائياتهم ومعادلاتهم، ومعاملهم.

وما زالت موجة الابادة في بدايتها. فقد هبط الغزاة الجدد في صحارى الأرض لتوهم. ومع ذلك، فضراوة العنصرية الجديدة ومخططاتها ليست أول أو آخر محنة يمر بها الانسان في تاريخه.

والانسان ان كان قد توصل الى البقاء حتى الآن رغم كل المهالك التي تعرض لها فماذلك إلا لأنه أقدر المخلوقات على التكيف. كل ما في الأمر أن التكيف في هذه المرة يتطلب رؤية أوضح تحدد أبعاد الخطر وحقيقته وكيفية مواجهته. فالتحدي تحد حضاري فوق وقبل كل شيء.

ولعل عظم التحدي يثير استجابة لدى شعوب أفريقيا، وشعوب العالم الثالث أجمع تعادل في القوة الخطر الداهم الذي بات يتهدد بقاءها ذاته.

حقيقة الغزو الامبريالي المبرمج لعقل الانسان

ان الصورة التي رسمها جورج أورويل في روايته «١٩٨٤» لشبح (الأخ الكبير) في الدولة «الدكتاتورية» الذي يراقب كل خطوة من خطوات مواطنيه، لم يعد أمراً خيالياً في أمريكا في الوقت الحاضر.

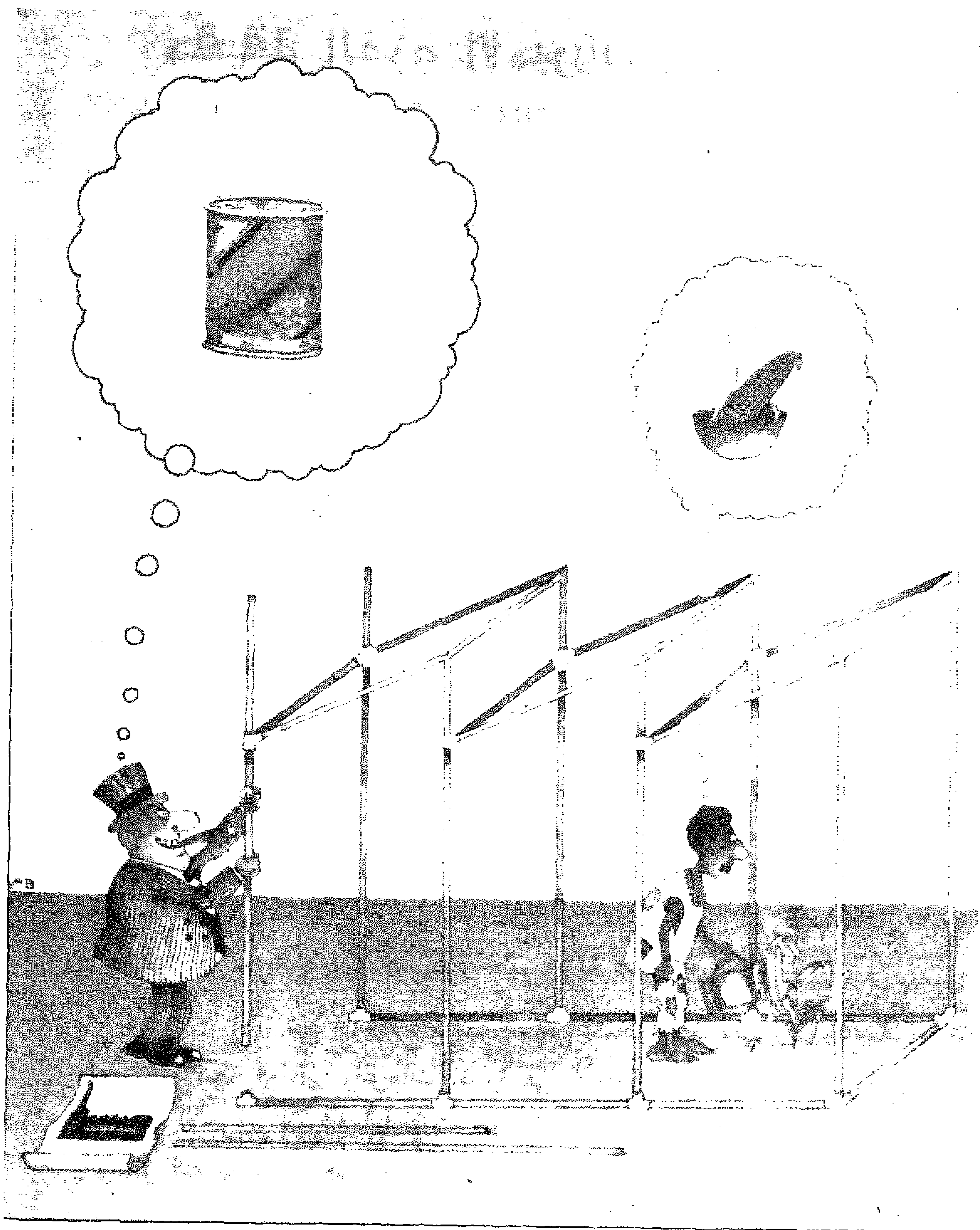
هذه هي النتيجة التي توصل اليها الناشر الأمريكي «فانس باكرد» من تحليله التشريحي للحياة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية ولا توجد في أيامنا هذه أي وسيلة لم يستخدمها النظام الامبريالي الحاكم في سبيل (تعرية) جوانب حياة الفرد، مهما تبلغ تلك الوسيلة من الخسة والدناءة.

وأكثر من ذلك:

أن هذا النظام لا يستنزف فقط استخدام جميع أشكال المراقبة والجلوزة حيال المواطنين، لكنه يلجأ الى الوسائل التي تجعل الأفراد يتحركون ويتصرفون كما تشاء سلطة هذا النظام، ويفكرون وفق مصالح الطبقة الحاكمة. ويشير «باكارد» في هذا المجال الى اثارة المخ بوساطة العقاقير والتجارب الكهربائية هذه الوسائل التي تطورت في سبيل الأغراض الطبية، والتي يمكن أن تكون في يد الامبرياليين المغررين بالجماهير وسيلة تؤثر في حرية الارادة للانسان وتحطيم وحدة شخصيته.

لقد ثبت الآن من الناحية النظرية، أنه من الممكن التأثير في رأي الانسان وتصرفه بواسطة العقاقير والموجات المؤثرة في الأعضاء، وكذلك بتأثير العوامل والوسائل الأخرى. إن تجارباً أجريت حول إمكانية السيطرة على عملية التفكير بالوسائل النفسية «البيولوجية» والتأثير عليها بوساطة العقاقير.

هذه الوسائل التي تستخدم بكثرة في الولايات المتحدة الاميريكية دفعت فريقاً من العلماء الأمريكان الى التصريح قبل سنين، بأن:



علم التحكم بالنفس البشرية يسبب تأثيرات أعظم من القنبلة الهيدروجينية.

وهذا يعني:

أن «الأخ الكبير» لأورويل لم يعد حلماً مثالياً للعلم والتكنيك، بل أصبح ظاهرة اجتماعية، ظاهرة حقيقية لا تدخل في عالم التفكير المفرط في الخيال، بل أنها أخذت ملامح واقعية في عالم الرأسمال.

ان العالم الاجتماعي الامريكي «دافيدريسما» الذي حل الجهاز المتطور للتأثير على الجماهير في الولايات المتحدة الأميركية، توصل في كتابه «الجمهور الوحيد» الى هذه النتيجة:

في المجتمع الحديث أخذ «الانسان المسيّر من الخارج» يحل محل «الانسان المسيّر من الداخل في السابق» و«الانسان المسيّر من التراث في الماضي».

أما زميله من ألمانيا «فريدمان» فيقول:

ان الانسان يصبح أكثر فأكثر شبيهاً بالكلب، الذي يسيل لعابه ويتهيج أو يهدأ بعد اشارات معينة كما هي الحالة في تجارب «بافلوف».

من المؤكد أن عملية إهانة وعبودية الانسان لا يمكن فصلهما عن تطور العلم. انها ليست نتيجة للعلم، بل هي سوء استخدام العلم في ظل علاقات اجتماعية معينة، وهي وليدة تطور الرأسمالية التي تمتاز بسحق كل ما هو انساني دون أي رحمة، وتسيء استخدام نتائج جميع الأبحاث العلمية، وتسخرها لخدمة الأغراض اللاانسانية وتجعل من الفرد مادة خاضعة أكثر فأكثر لوسائل «تكنيكية» ونفسية في النظام الأميركي:

الذي يخضع الجماهير للعبودية والأكاذيب.

ان الأوساط العلمية والسياسية الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية متقدمة على الدول الأوروبية الأخرى في الأمور المتعلقة بتزييف وعي الجماهير، وفي نتائج استخدام «علم التحكم بالنفس البشرية». وهذا التطور هو اتجاه من صلب النظام الرأسمالي في المرحلة الحاضرة.

ولقد اعترف به عن حق «اكهارد كير بندورف» (الذي يعد اسمه جزءاً من التأثير النفسي على الجماهير) أثناء حديث له من اذاعة «برلين الحرة» حول كتاب «باكارد» قائلاً:

ان هذه المسألة ليست أمريكية صرفة. ولو نظرنا بإمعان حولنا لوجدنا في الحقيقة صفاً طويلاً من الظواهر التي تشير الى الاتجاه نفسه. إن امريكا متقدمة علينا بعض الخطوات في «التكنولوجيا». ولكنها لا تختلف عنا في أساس هذا التطور.

ان «ليزش ميوللر» لا تختلف عن «جون. ك. بابليك» كما يسمي مسيري الجماهير بكل احتقار - من يوم مولدها حتى مماتها، في كل جواب الحياة، تحت القبضة الخانقة للرأسمال، الذي لا يستخدم في سبيل ذلك سلطة الدولة والمنظمات الارهابية الخاضعة للاحتكارات كقوة مباشرة، بل يستخدم في الوقت نفسه القوة غير المباشرة، ألا وهي:

تزييف وعي الجماهير، الذي يبدأ من ارهاب السلعة حتى التصرف الاجتماعي القسري.

ان تنفيذ هذه المهمة يوكل الى أساتذة في خداع الجماهير والتأثير فيهم. انهم يخططون «تاكتيك» و«استراتيجية» حملات الربح ضد «الانسان البسيط» قبل دخوله مخازن البيع. انهم يوقظون رغباته ويعطونه احتياجاته، ويحكمون عليه خططاً.

معارك بيع أدوات الغسيل ومكعبات الحساء واطارات السيارات.

ويذكر «كورث جاير» في تحليله للواقع الامريكي الداخلي قائلاً:

ان البضاعة الموجودة في كل مخزن بسيط بجانب صفوف الفولاذ وقطع الصابون، تكتسب بصورة عجيبة أهمية كبرى، وقيمة خيالية في عالم أحلام الرغبات الكامنة. وتصبح هذه البضاعة حاجة معبودة للتملك الفردي في عملية الشراء.

إن التفكير الاجباري بالبضاعة، وهذا الاسلوب في التصرف، لا يخدمان فقط التجارة الكبيرة وتجميع الربح، بل يتجاوزان ذلك الى المحافظة على نظام الربح.

ان مشتري البضاعة، وكذلك الذين يحلمون ببضاعة ما، ويسعون دون كلل لإشباع حاجة معينة بالذات هم صورة واقعية معكوسة «لمجتمع الرخاء» (جالبرت) و«الرفاه للجميع» (ايرهارد)، وهم في الوقت نفسه مسلوبو التفكير السياسي

والتصرف الارادي. أما السيطرة والتأثير في التفكير والتصرف لا يشمل فقط مجال البضاعة، ولا يقتصر أيضاً على نتائجه السياسية.

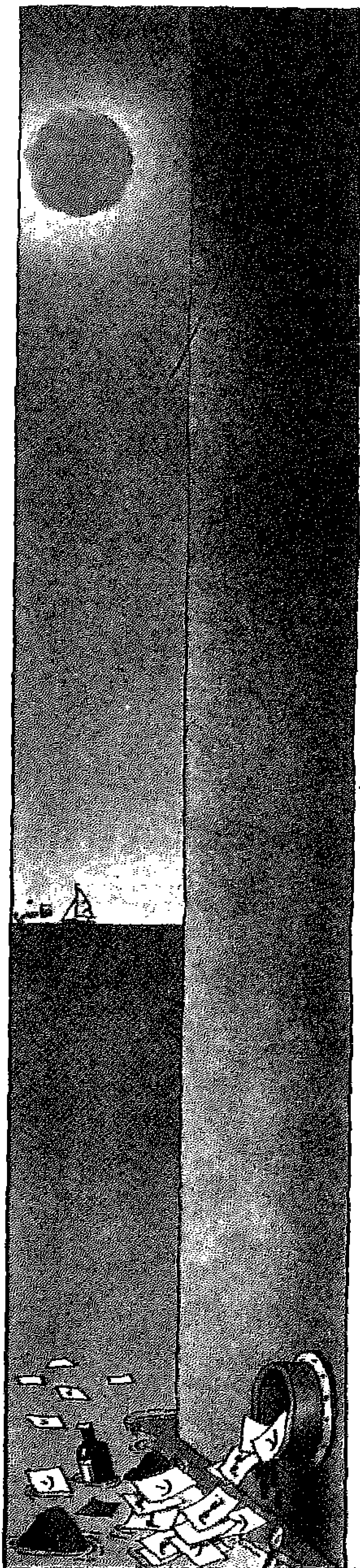
انه موجه نحو الانسان ككل، نحو أفكاره وتصرفاته جميعاً. ويستخدم «الامبرياليون» في سبيل ذلك وكالات كبيرة للاعلان، تأخذ بنظرها المعرفة التامة بعمليات الادراك المعقدة وقانونيتها الطبيعية، وذلك لاستخدام كل التجارب المكتسبة للاعلان عن البضاعة في المجال السياسي، وفي سبيل صنع الأفكار السياسية للذين بيدهم القوة المالية، ويمكن الاستشهاد في هذا المجال بـ «جون. ف. كنيدي». انه قال:

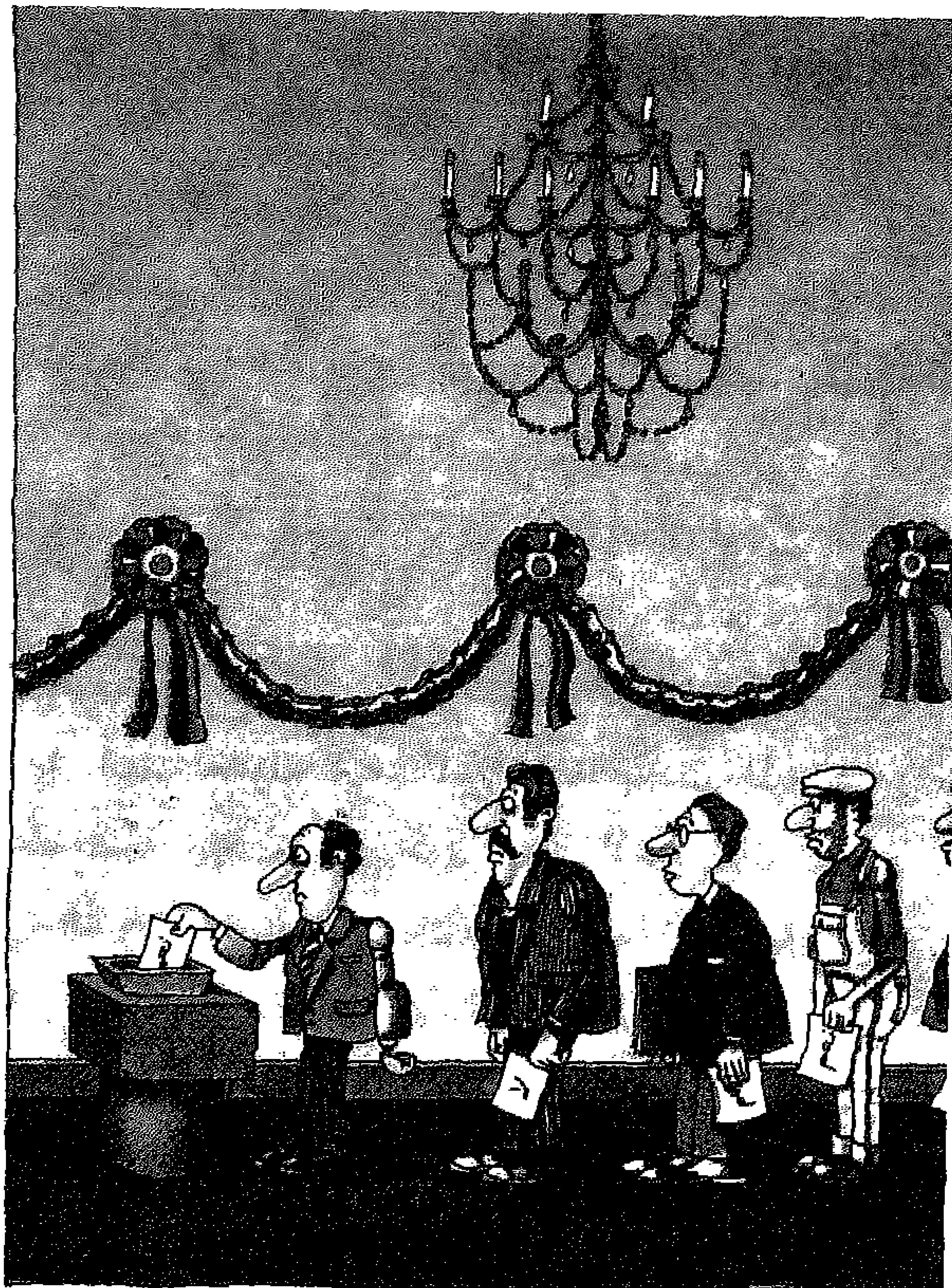
> ان النضالات السياسية يقوم بها في أيامنا هذه، أولئك الذين يفهمون في علاقات الاعلان، أي مدراء الدعاية، الذين لا ينصحون المرشح كيف يتصرف في البرامج «التلفزيونية» فقط، بل أنهم يعدون له ما يقول، وما يجب عليه تبنيه، وأي شخصية يجب أن يكون. من الممكن أن يصبح النضال السياسي استعراضاً والاستعرضات السياسية يمكن أن تلغى بسهولة كما تلغى الاستعراضات الهزلية.

ان خبراء الاعلان والدعاية، يعطون وفقاً لذوق المجتمع ـ الذي هيء مسبقاً ـ الارشادات السياسية، وكيف وماذا يقولون قبل أية معركة انتخابية كي ينجحوا في الانتخابات.

انهم يهيئون لذلك أقنعة سياسية تضفي على شخصيات مرشحيهم، الشباب، والشعر والحواجب الكثيفة، لتكون لمظاهرهم في المعركة الانتخابية «السيكولوجية» أهمية أكبر من تصريحاتهم وخطبهم السياسية.









ساحر أرواح الجماهير

ان هانسي دوميتسلاف الذي يحترف سيكولوجية الاعلان في مدينة «هامبورغ» في المانيا، يعد أحد كبار «سحرة أرواح الجماهير» وهو تلميذ نجيب للعالم السيكولوجي والاجتماعي الفرنسي «لي بو» الذي قال أنه قام بالتأثير على الأيديولوجية الفاشستية أيضاً.

لقد خدم «دو ميتسلاف» ربع قرن من الزمان احتكارات «سمينز»، ثم اشتغل فترة لحساب «فيليب. ف. ريمتس» وبعد ذلك لشركة الاسطوانات الألمانية، وساعدها بوساطة الحملة الدعائية الواسعة والعلامة التي صممها لها، على تحقيق أرباح طائلة. إن ملايين من الناس طبعوا في مخيلتهم تلك العلامة التي ابتدعها، ويشترون وفق حاجياتهم. وفي الفترة نفسها التي أسس فيها «لريمتسما» «معهد تكنيك العلاقات» شارك في انشاء اتحاد الدعاية البرجوازية الاحتكارية. ويتجسم في شخصه اسلوب من الدعاية للعلامات التجارية في المجال السياسي، وفي سبيل «التأثير النفسي في الجماهير بصورة مباشرة وغير مباشرة بطريق القوة الشاملة» للحفاظ على استمرار سيطرة الطبقة الرأسمالية على المجتمع. فقد كتب في احدى مطبوعاته في عام ١٩٣٢ تحت عنوان «الدعاية كوسيلة فكرية للدولة قائلاً:

> يجب توجيه التوتر في المجتمع وجهة أخرى، بحيث ينجرف عن هدفه على الأقل.. كي تتحمل المسؤولية بصورة أساسية في كل مرة: تلك الحكومة المهيمنة على الحكم، أو كما تسمى غالباً: ذلك النظام المعين بالذات.

والوصفة التي يعطيها لذلك هي:

> الشعب يفهم الأشياء البسيطة جداً، فقط الأشياء التي يجب أن تكون ملموسة قدر الامكان، واذا تجاوز الأمر ذلك، فانهم لا يفهمون إلا النغمة الأساسية.. الأفكار البسيطة جداً التي ليس من الضروري أن تكون أفكاراً معقولة، لكنها

يجب أن تخاطب نفسية الجماهير بصورة تولد عندهم حالة نفسية معينة تجعل أكثر البيانات الحكومية صدقاً وشرفاً عديمة التأثير.

ونشر احدى مقولاته هذه: «الأفكار التي ليس من الضروري أن تكون أفكاراً معقولة» في مؤلفاته الأخيرة التي يبين فيها أنه لا يشك أبداً:

أن أشنع الكذبات يمكن تصديقها، أو أنها تخلق على الأقل أساساً مفيداً، حين تستخدم بوقاحة وبصورة مستمرة.

ويضيف قائلاً، أنه لا يريد أن يعير للأخلاق أية أهمية تذكر، بل على العكس من ذلك، أنه يبني عليها جميع أفكاره الخادعة، ويستنتج منها ارشادات ونصائح للطبقة الحاكمة. ومن الضروري في هذه الحالة تجاوز التناقضات الطبقية الموجودة، وجعل الجماهير... ترتبط بالحكومة كأنهما عائلة واحدة متجانسة.

ولابد للمرء أن يستخدم لهذا الغرض شبح الخطر الخارجي:

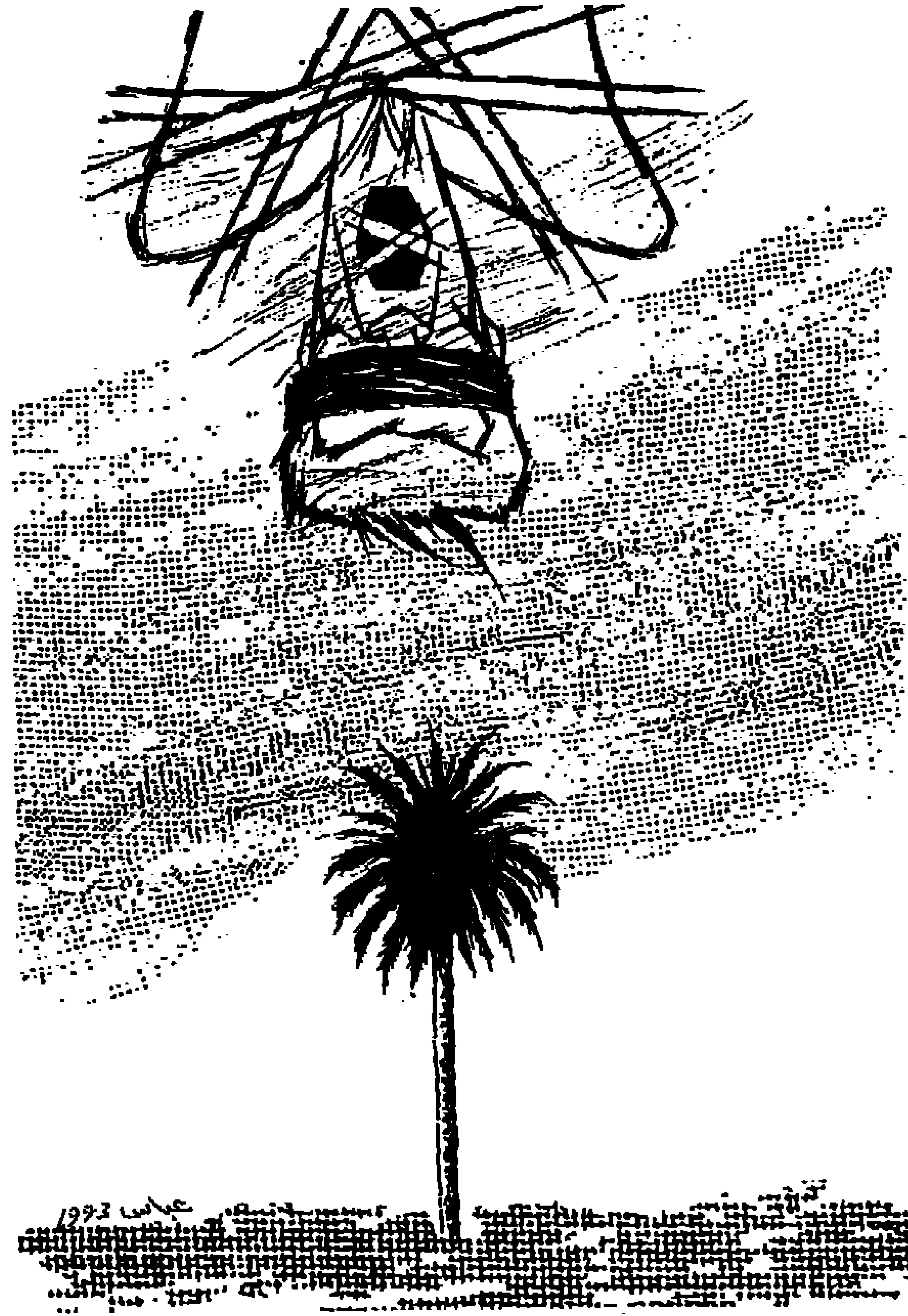
«لأن الدولة تجد سبب تطورها الحيوي في الضرورة الحقيقية أو المتخيلة في الدفاع أو الهجوم الموجه نحو الخارج»

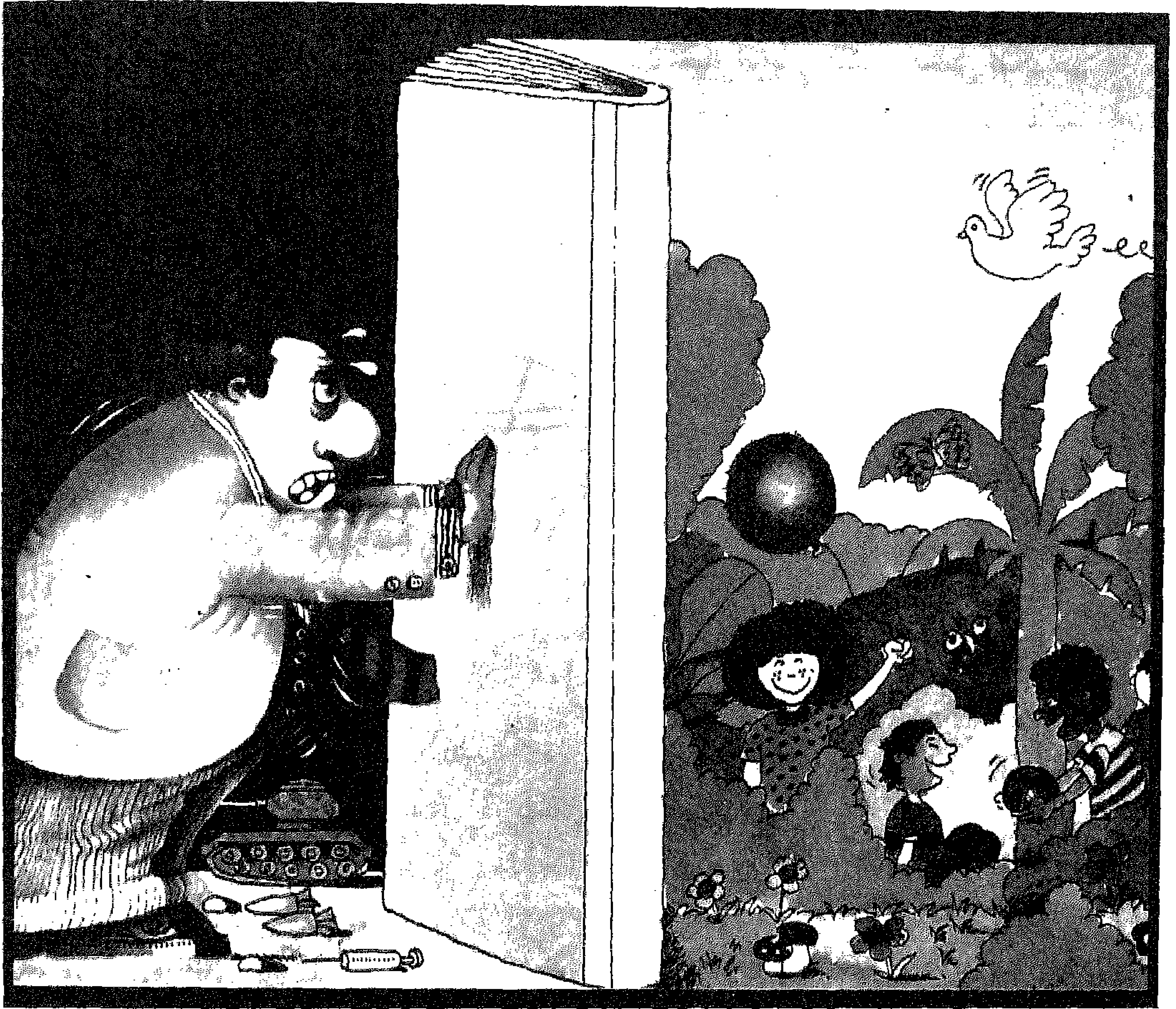
من النادر جداً أن يكشف الكذب وخداع الشعب عن وجهه دون تبرج. وبهذه الصفاقة بهذه الصورة التي تجد شاهداً لها وتتويجاً في هذه الكلمات المهينة والمجرمة بحق الناس:

«ان النباتات والحيوانات والجماهير لا يمكن تربيتها بل ترويضها وقيادتها، ودفعها الى الأمام أو تحطيمها» ان هذا التحطيم والترويض للجماهير الشعبية أصبح ميزة أساسية للسياسة «الفاشستية»، ومما لاشك فيه، أن هذا هو سبب اهتمام «جوبلز» رئيس الدعاية الفاشستية بالنبي المزيف «دوميتسلاف». أما «هتلر» الذي كانت عنده آراء «رفاق الشعب» نتيجة «للمعالجة العنيدة للروح والفكر» بوساطة الكلمات الجوفاء والارهاب، فقد وجد في صوته الهستيري المحمل بانفجارات الكلمات، ما أكده «دوميتسلاف» عن قوة سحر الكلمات المنطوقة.

لو بحث المرء في الواقع الألماني الحالي عن مدى حيوية أفكار دوميتسلاف المقررة لاكتشف ازدهار جميع أحلامه الوردية، واستناداً الى نتائج اختبار الرأي العام لمعهد استتفتاء الرأي العام في مدينة «النيزباخ»، أفسح له المجال مع جمعية الدعاية الاجتماعية، لتطبيق بمعارفه في «سيكولوجية» الجماهير على أوسع نطاق.

ان وسائله، للتأثير على الجماهير تعد أساساً للدعاية«السيكولوجية» ولعلم الاعلان، وهي في الحقيقة أساس لكل النظام «الامبريالي». انه منّظر وملهم سياسة تزييف الجماهير، التي تنفذ الى جميع جوانب حياة مواطني ألمانيا، لتجعل تفكيرهم وتصرفهم ملائماً لاحتياجات الرأسمال ومطامع الفئة الاحتكارية المسيطر على مقاليد الحكم.





الضباب الغامض على مجرى الحياة الاجتماعية

ان النضال الايجابي للطبقة العاملة وكل المؤمنين بالديمقراطية، يتطلب الاجابة على سؤال:

- كيف يمكن خداع الناس وتزييف وعيهم بصورة مناقضة تماماً لواقع الحياة الاجتماعية؟
- وكيف يمكنهم تصديق ما تقدمه لهم الأفكار البرجوازية من المفاهيم والعلاقات المتناقضة والصورة الممزقة للحقيقة؟
- وكيف يمكن أن تكون للأفكار اللاموضوعية المعادية لمصالح الشعب كل هذا التأثير؟

كتب يوهارنس.ر. بيشر:

«أن الرأسمالية تخضع الناس الى تعطيل شامل في التفكير. أنها تقول:

ان التفكير ممنوع، وان الأفكار الذاتية غير مرغوبة. بل أنها تخلق الأفكار المبتغاة بتلك الكثرة، بحيث لا تستطيع الأفكار الذاتية الظهور الى جانب الأفكار الشاملة، وترشح الأفكار المطلوبة للمخ ببراعة تجعل الانسان يتصور أن هذه الأفكار الغريبة هي وليدة تفكيره الخاص».

لقد كتب الكثير عن احتكار شبرينجر ـ بيرتلمان هنا ذكر الأسماء والاشارة الى الاذاعة والتلفزيون، لاظهار وسائل التأثير على الجماهير التي تسيطر عليها البرجوازية الاستعمارية في أيامنا هذه، تلك الوسائل التي تجاوزت قوة إنتشارها وحجمها كل الوسائل التي كانت موجودة في السابق.

ان البرجوازية تستخدم هذه الوسائل وتسيء استخدام المعارف العلمية الحديثة والامكانيات التكنيكية لتزييف وعي الجماهير. انه تطور خطر للغاية، وخاصة حينما

يفكر المرء بالمستقبل، وباستخدام دعاة الامبريالية بصورة مريبة لكل الامكانيات التي وفرتها لهم الثورة العلمية والتكنيكية لخدمة سياستهم العدوانية.

ففي الولايات المتحدة الأميركية، تستخدم الاحتكارات الكبرى منذ فترة طويلة في التلفزيون ما يسمى بالدعاية الفنية. ففي أثناء احدى البرامج التلفزيونية يظهر على شاشة التلفزيون ولفترة جزء من الثانية اعلان خاطف قلما يستطيع المشاهد رؤيته، ولكن العلامة المراد الاعلان عنها تبقى ثابتة في مخيلته.

ان الشركة التي تهتم بهذه الوسيلة في الاعلان، اكتشفت في هذا المجال طريقة صوتية للاعلان:

انها تقوم بالاذاعة بواسطة الذبذبات فوق الصوتية، التي لا يستطيع الانسان أن يسمعها.

لكنها تترك تأثيرها في الطبقات العميقة للنفس البشرية.

وبواسطتها يراد ربط المستمع ببضاعة استهلاكية معينة.

ولكن ماذا يحدث لو أثبتت هذه الوسائل فاعليتها، واستولى عليها المنافقون والمخادعون السياسيون. لنتصور الدور الجبار الذي ستقوم به الصورة ـ خاصة وأن المرء لا يستطيع نكران ما تعرضه عليه لأنه يراها بنفسه ـ وما تتركه من تأثير وارهاب ايديولوجي، حين يستخدم هذا التأثير الخادعون للجماهير، ويستخدمون لنقل تلك الصورة تلفزيونات مركبات الفضاء العابرة للقارات.

ان عدداً هائلاً من الشعوب ستعيش في نفس الساعة والدقيقة حدثاً واحداً، ويصبح من الممكن خلق توتر وخوف وسعادة جماعية، ودفع عدد هائل من الناس الى الحقد أو الى الوئام أيضاً.

ان الأحداث الثورية في العلم والتكنيك ستفتح للانسانية آفاقاً جبارة من الرخاء، ويمكن أن تجلب هذه القوة في العلم والتكنيك الدمار والخراب.

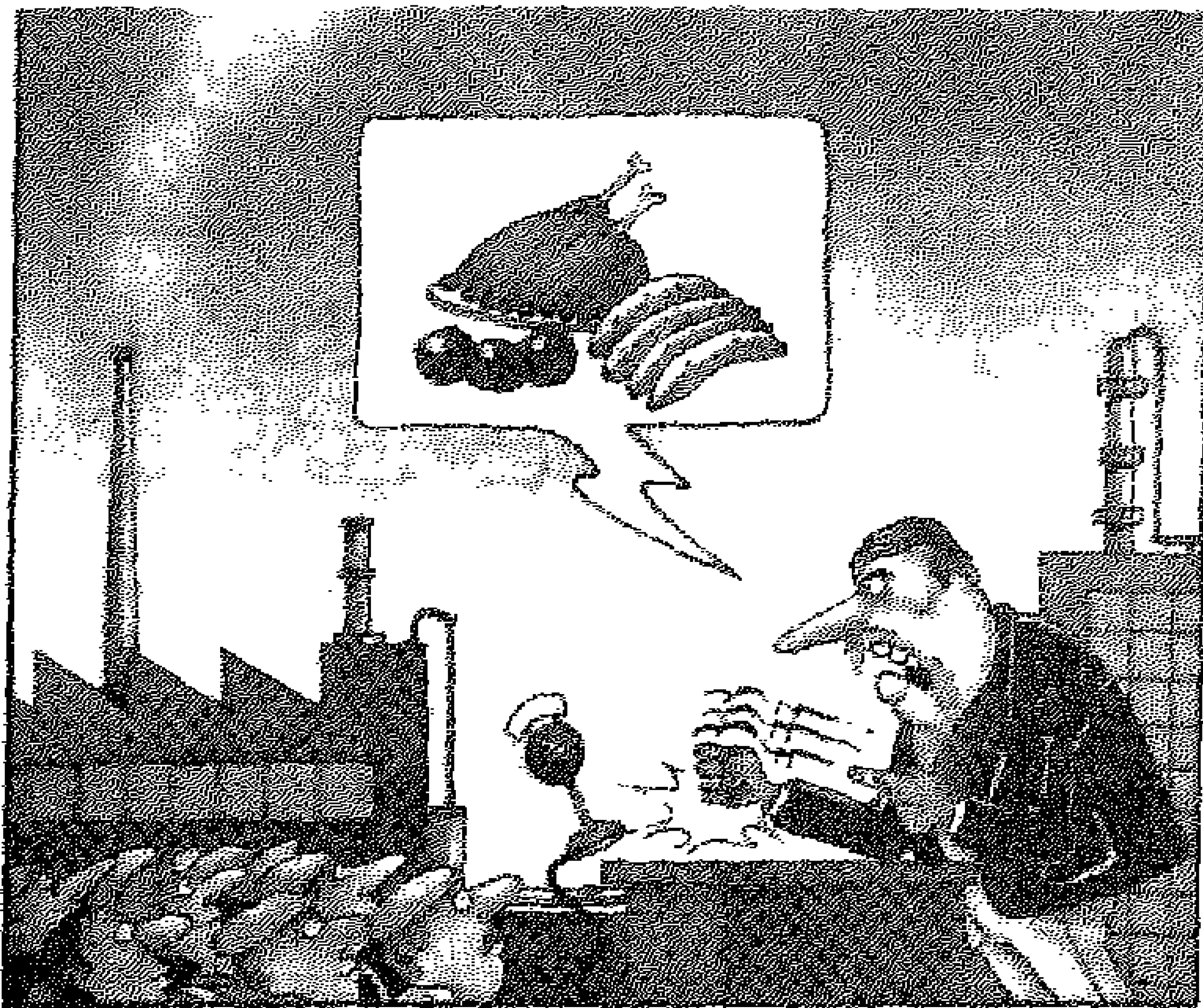
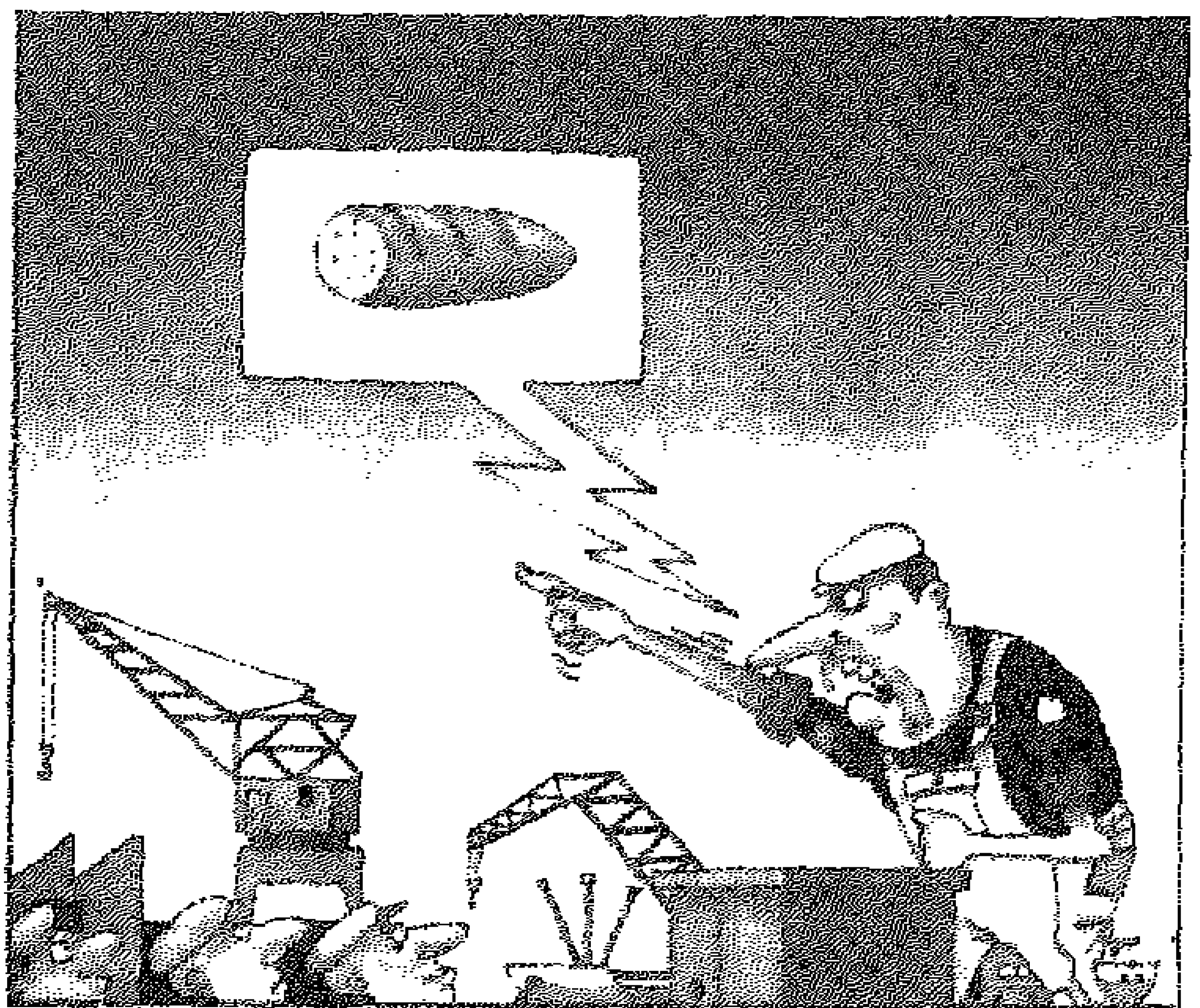
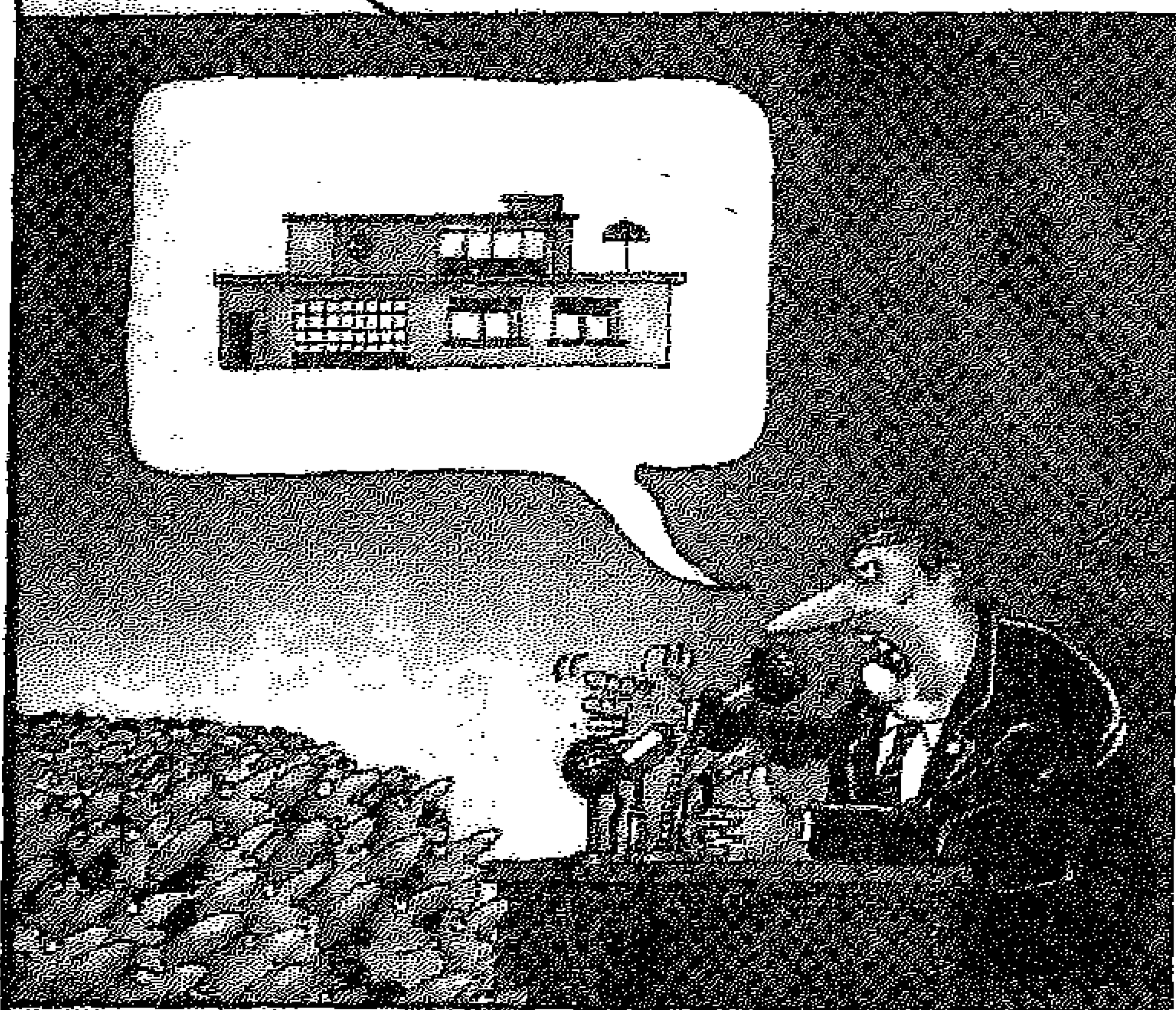
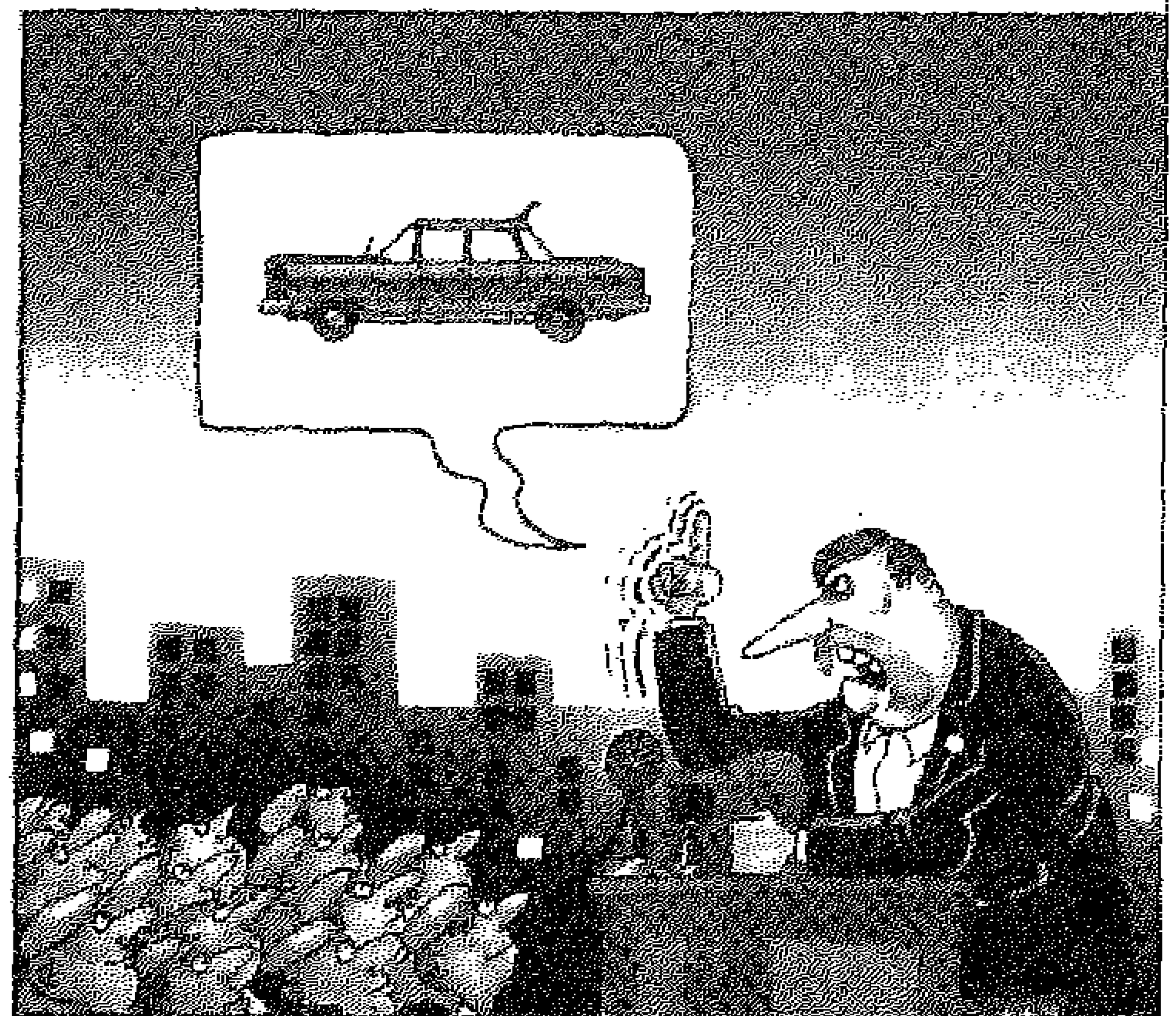
ان التأثير على الناس وعلى تفكيرهم وتصرفهم، هو من الأسلحة الفعالة والخطرة. وهذه صفة ملازمة للاحتكار ككل، والسيطرة الشاملة ، ونفاذ علاقات حكمه الى جميع مجالات الحياة، هذا الحكم الذي لا يمكن المحافظة على بقائه دون استخدام الكذب والخداع.

ان المراوغة الامبريالية هي قبل كل شيء، تعبير عن ضعف وأزمة انهيار النظام الامبريالي. فكلما ازدادت التناقضات الموضوعية لهذا النظام، ازدادت محاولات الطبقة الحاكمة، لاخفاء هذه التناقضات عن الجماهير.

وهكذا تتعمق قبل كل شيء هوة التناقض بين القلة الرأسمالية والآخذة بالزوال، وبين الأغلبية الساحقة من الشعب. وخلافاً للنظرية البرجوازية القائلة باختفاء الطبقة العاملة، وزوال الضرورة التاريخية للتغيرات الثورية للمجتمع الحالي، تنمو الطبقة العاملة عند تغيير بنائها وتزداد سعة وانتشاراً.






الفصل الثاني

مشاكل العمال والزنوج وسيادة البيض

● إن الطبقات الحاكمة
نشرت التعالي الطبقي وغذّت وزرعت
الروح العنصرية لمدة طويلة.

وليم فوستر

تعرية الكذبة

إن العلاقة الكمية التي تجد لها تعبيراً في حدة التناقض بين الرأسمال والعمل، تحتم كشرط لبقاء علاقات الحكم للرأسمالية، الى جانب الاضطهاد المادي تحتم «تدليك الروح» المحكومين من قبل الطبقة الحاكمة.

فلا الوسائل الجبارة الموضوعة في خدمة البرجوازية الكبيرة، ولا دقة استخدام معارف علم النفس والمنجزات التكنيكية كوسائل للدعاية لايديولوجية الدولة، تستطيع تماماً الاجابة على ما ترتأيه الايديولوجية البرجوازية للجماهير، لأنه رغم تعاظم الحركة المعادية للامبريالية، ما زالت توجد نسبة عالية من الجماهير غير الواعية، التي من الضروري أفهامها، بأن قوة الطبقة الحاكمة موجهة ضدها.

> ان تعرية الكذبة، حتى وان كانت مقدمة لكل براعة، لا تكفي وحدها كاجابة شافية.

ان القضية الحاسمة هي، ان السلطة السياسية للطغمة المالية، تعمل على اضعاف الشغيلة حيال القوى الاجتماعية والتأثير الموجه المفكر والمستند على صفات نوعية للقوة الاقتصادية للرأسمال، الذي يضفي الغموض على العلاقات الحقيقية للسلطة العلاقات الطبقية المتناقضة واسلوب الانتاج الرأسمالي.

> انه عالم سحري، مقلوب، واقف على رأسه، حيث السيد رأسمال وأمنا الأرض، أي الصفات الاجتماعية، والتي هي في نفس الوقت أشياء مكشوفة تقوم بالسحر بصورة مباشرة.

ففي المجتمعات الطبقية التي سبقت الرأسمالية، كانت سلطة الأقلية الحاكمة على الاكثرية المستغلة والمضطهدة، تتصف الى جانب الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، باضطهاد غير اقتصادي، بأشكال ارتباط شخصي للعبد باصحاب العبيد، والفلاح بالسيد الاقطاعي، أو ما شبه ذلك من أشكال الارتباطات الشخصية المعينة. وبالضبط لأن علاقات الارتباطات الشخصية هي الأساس الاجتماعي الواقعي، لذا فان العمل والانتاج لا يحتاجان لان يتخذا شكلاً وهمياً مختلفاً عن واقعهما الموضوعي.

ان كل مَن يعرف أن كمية معينة من عمله الفردي، يقدمه في خدمة سيده. وان العلاقات الاجتماعية للأفراد أثناء عملهم، تبدو على كل حال كعلاقاتهم الشخصية الخاصة.

ان الحالة تختلف في الرأسمالية. ان العامل خاضع للقسر الاقتصادي، في هذا المجتمع الذي يتميز بالاستغلال والاستعباد والذي لا يمكن سبر أغواره بسهولة كما كانت الحالة في أساليب الانتاج للمجتمعات القديمة، التي كانت تستند على علاقات سلطة وعبودية مباشرة.

ان السلطة غامضة ومختفية تحت غطاء سلطة الأشياء، وسلطة السلعة على الأفراد، بالرغم من أنها تجلب معها علاقات الخضوع الحقيقية عن طريق الاستعباد الملزم للعامل الأجير الذي تخضع علاقاته لسيطرة الرأسمال.

ان العلاقات الاجتماعية والطبقية، تبدو في البداية في لبوسها الحقيقي على سطح الخبرات اليومية.

واستناداً الى حقيقة أن الصفة الاجتماعية للعمل المنتج للبضاعة تظهر أثناء التبادل في السوق، يتولد مثلاً، الاحساس السطحي، كما لو أن الأفراد هم الذين يبادلون عملهم الانتاجي بعضهم البعض، وتبدو المسألة على أنها علاقة بضاعة بأخرى.

وبما أن غنى أو فقر المنتجين للبضاعة مرتبط في السوق بالبضاعة التي ينتجونها، تبدو البضاعة كأنها شيء غامض، وقوة مسيطرة على الأفراد في نفس الوقت.

ان هذه الصفة السحرية للبضاعة تبلغ ذروتها في القوة السحرية للرأسمال، الذي يولد شعوراً بأن الرأسمال نفسه يمتلك صفة عجيبة، تضمن لمالكه دخلاً عظيماً دون أي عمل مقابل.

وبذلك يتحول الاستغلال الى استخدام الرأسمال لنفسه. وموازاة لهذه «الديانة اليومية» تتخذ جميع عمليات الحياة الاجتماعية صفة «سحرية غامضة» تمزق جوهر العلاقات الاجتماعية وتقلبها وتجعلها لا ارادية، اي أنها تولد خيالات تخلو من التأثيرات الخارجية.

ان هذا يشمل قبل كل شيء شراء وبيع قوة العمل، التي هي بضاعة أيضاً، انها تولد تصورات خارجية، تجعل وجود العمال بواسطة الرأسماليين

جنة حقيقية للحقوق الموروثة للأفراد.

الحرية! لبائع البضاعة وللمشتري.

أي أن قوة العمل هي التي تقرر بمحض ارادتها، وتدخل في المزاحمة كافراد لها حقوقها. والنتيجة النهائية هي عقد العمل، الذي يحوي حقوقهم المشتركة.

المساواة! انهم يقفون وجهاً لوجه كأصحاب بضاعة، ويتبادلون قيماً بديلة.

الملكيةّ كل له حرية التصرف بما يملك.

وتبدو أجرة العمل كحساب مدفوع عن العمل، وتولد احساساً بحيث لا تبدو قوة العمل هي قيمة البضاعة، بل أن كل ما انجزه العامل من عمل قد دفع ثمنه، وان القيمة الزائدة نتجت بواسطة الرأسمال الذي هو عامل الانتاج...

ويختفي في النهاية الاستغلال من مثل هذه المفاهيم، مثل فائدة المال وراتب التقاعد، التي تبدو في جوهرها المادي كفترة غير مدفوعة الأجر.

ان التطور الاحتكاري والتحول الشامل الى رأسمالية الدولة الاحتكاريةتخلق استقطاباً في الملكية والعلاقات الطبقية، وتجلب معها في نفس الوقت ظواهر جديدة في العلاقة بين الرأسمال والعمل، تزيد في اخفاء الاستغلال وتجعل من الصعب معرفة العلاقات الطبقية الحقيقية.

ويغدو نظام الانتاج معقداً وأكثر تركيباً بصورة مستمرة. ان الارتباطات الفعلية التي تظهر فيها العلاقات الرأسمالية، تأخذ طابعاً أقوى وتجعل نظام السيطرة أكثر غموضاً، وتلف نظام ترابط العلاقات الاجتماعية بملاءة غير شفافة.

ان التغيرات التي حدثت في تركيب الطبقة العاملة نتيجة للثورة العلمية والتكنيكية، وازدياد التمايز والتخصص في عملية الانتاج، هي التي تطمر انقسام المجتمع الى طبقات وتظهر بدلاً عنها سلطة مدرجة مقسمة الى عدة أقسام، تبدأ من العمال المساعدين حتى المدير العام.

وبذلك تتحول العلاقة الطبقية الى علاقات وظيفية سطحية، أي الى ارتباط العامل بالخبراء القياديين، الذين لا تبدو وظيفتهم الرأسمالية واضحة تماماً.

وتبدو التناقضات في النظام الرأسمالي غير سياسية كالانتاج، أي انها تناقضات نظرية في النظام.

ان العلاقات بين الرأسمال والعمال تختفي بتصرفات الأفراد الظاهرية، وكذلك بواسطة الضرورات حيال العلاقات الاجتماعية التي تشبه في وضوحها نظام الانتاج التكنيكي.

ان الاحتكارات العملاقة تبدو كأنظمة انتاج تكنيكية ـ ادارية، اكثر مما هي وحدات اقتصادية اجتماعية. انها تجعل من الصعب على الأفراد معرفة العلاقات الاجتماعية لعمليات الانتاج في كليتها، فلا يعرفون سوى عجلة صغيرة في كل الآلة. انها تدفع بالعمال القهقرى، وتقوي عندهم الاحساس بالعجز تجاه العلاقات والقوى الاجتماعية.

ان البرجوازية الاحتكارية تبغي بواسطة الامتيازات الكبيرة، وعن طريق التمايز المتزايد بين الأجور والمعاشات، الاظهار بالكذب،

ان التقسيم الطبقي للمجتمع الرأسمالي هو أمر يعود الى الماضي، وان المجتمع الصناعي ناتج فقط من كيفية تقسيم العمل.

لقد ازدادت علاقات الرأسمال غموضاً، بعد أن أصبحت الدولة الامبريالية هي المستغلة للجماهير. وبذلك لم يعد رجال الدولة كطبقة تسمح بصورة مكشوفة ظهور الاستغلال الذي يتعرض له العمل في هذه المشاريع. وهم بهذا يعمقون ادعاء استقلالية الدولة عن الرأسمال الاحتكاري.

ان هذا المظهر الكاذب لجوهر عمليات الحياة الاجتماعية، هو الأساسي الموضوعي للمنطلق العام للايديولوجية البرجوازية. انها وليدة أسباب داخلية، طالما أن وعي الأفراد يتكون على سطح الظواهر والخبرات المستقاة منها.

فبينما يزداد الابهام تلقائياً بتطور الرأسمالية الاحتكارية ورأسمالية الدولة الاحتكارية، تدخل الأوهام التي يولدها هذا الابهام في تناقض مع التجارب والمعارف التي اكتسبها الافراد نتيجة لتأزم التناقضات الرأسمالية، ولتأثير الأفكار التقدمية.

وكلما ازدادت الظروف الذاتية لازالة النظام الرأسمالي، كلما كانت مصالح الرأسمال بحاجة الى التعويض على الخسارة في الأوهام الناتجة تلقائياً، وذلك بالتزييف الواعي لأفكار المضطهدين.



التزييف الواعي

إن التزييف الواعي والشامل لأفكار الشغيلة، يستند على الغموض التلقائي التام ويعمل في نفس الوقت على اتمامه وتثبيته. ان واجبه هو التأثير على وعي الطبقة المحكومة بالعوامل المضادة لها وربطها بالظواهر الكاذبة للعالم، ومنع الجماهير من معرفة كنه الفعاليات الحيوية للمجتمع، واضافة الى منع هذه، تعمل نظرية توجيه فكر الجماهير وتزيفه، على منع الافراد من العمل الفعلي ضد الافكار والتصورات التي يعدها لهم نظام حكم الدولة الاحتكارية، تجعلهم ينضوون تحت لوائها الايديولوجي. انها توحي للأفراد بالتصورات الخاطئة، بأنهم يعيشون في عالم الحرية الديمقراطية والكرامة الانسانية، ويفعلون فقط ماتسمح به مصالح الرأسمال.

ويدخل ضمن هذه الوظيفة المذلة للانسان المفهوم الذي يطلق عليه منظرو البرجوازية «المجتمع المتناسق» انهم ينتظرون من هذه الصورة التي يطلقونها على المجتمع تأثيرا سحريا على الطبقة العاملة والنضال الطبقي، ويبغون بذلك تأثيرا يوحي باستقرار النظام الاجتماعي.

انهم يقدمون هذه الفكرة كبديل عن القوة المشعة للافكار التقدمية، ويريدون بها اعطاء الجواب عن المسالة المتعلقة بالتطور الاجتماعي المقبل وفق المصالح الرأسمالية، وخلق «الوعي لكل المجتمع».

> أي لابد من توجيه أفكار الأفراد مصالح الاحتكارات واهداف الامبريالية، وجعلهم يتصرفون كما لو كانوا يناضلون من اجل مصالحهم الطبقية.

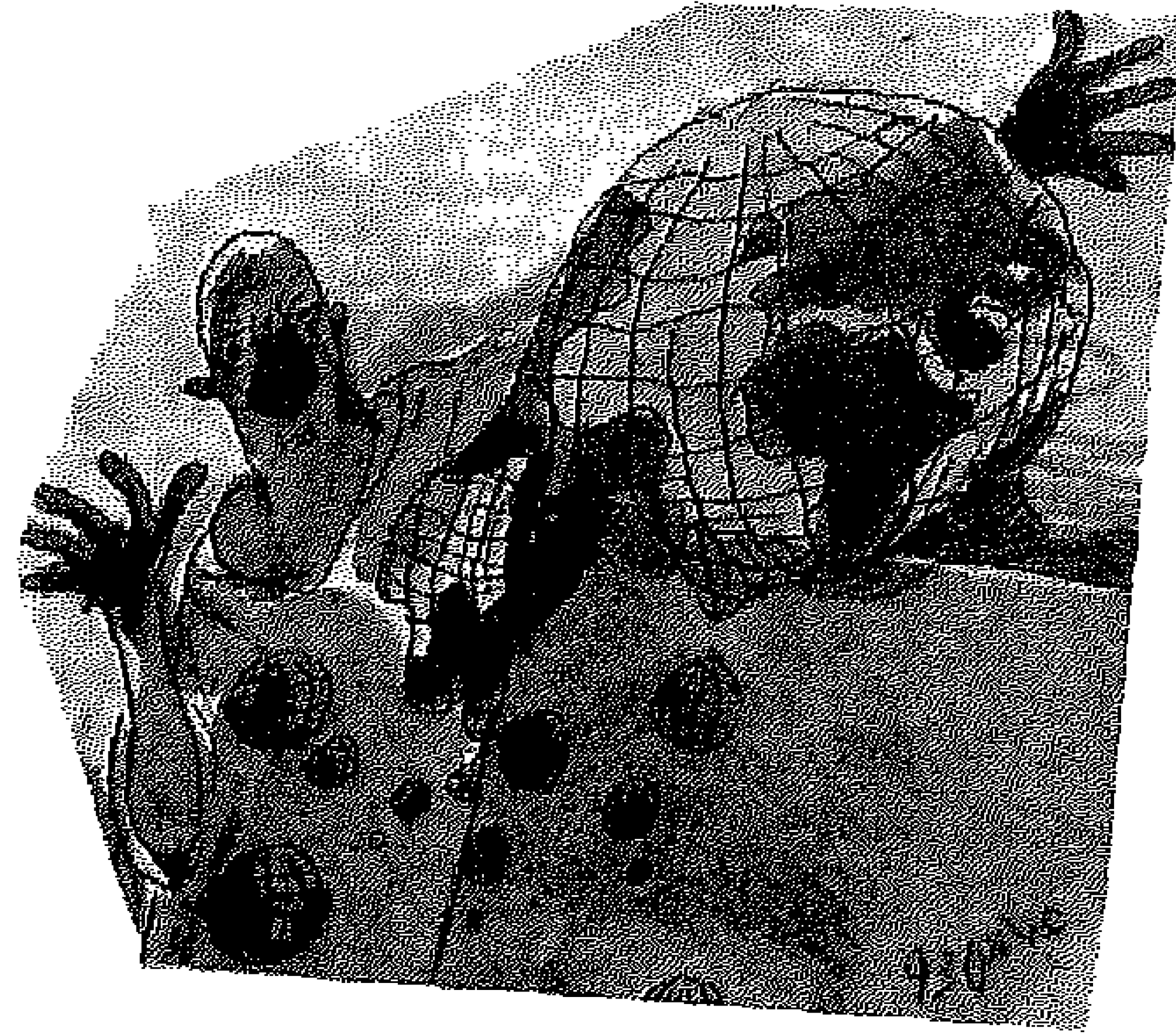
من المعلوم انه لايمكن ان يوجد تكامل دائمي حقيقي متناسق للطبقة العاملة وبقية الشغيلة المستغلة في النظام الاجتماعي الحالي، وفق ادراج مدرك لهذا النظام.

ان هذه المسألة ينقصها الأساس الموضوعي الحاسم، ألا وهو التناقض بين الرأسمال والعمل. ولكن هذا لا يمنع من ان الطبقة الحاكمة ومنظريها وخالقي اساطيرها، يتمكنون الى امد من خلق هذه الحالة باستخدامهم بانتظام جميع الوسائل

الحديثة للتأثير النفسي على الجماهير وكذلك بجميع الطرق التكنيكية ـ للتأثير الايديولوجي، فيخلقون بذلك عند الجماهير وعيا خيالياً خاطئاً، يستند على الافتقار الى فهم جوهر العلاقات الاجتماعية، وهذا يقود الى أن الفرد يتفق مع هذا النظام المعادي له من الناحية الموضوعية، ويعتبره ملكه.

وهكذا تمكنت القوى الاحتكارية بواسطة التنازلات الاجتماعية التي اضطرت اليها وعن طريق استخدام وسائل الدعاية لمكافحة الافكار التقدمية، والبرلمانات الشكلية، ان تربط فكريا اقساماً كبيرة من المواطنين إلى عجلتها واستطاعت بصورة مناقضة للحقائق الاجتماعية ان تقنعهم فترة طويلة بأنهم يعيشون في عالم تسوده الحرية والديمقراطية. ان هذا «الوعي الخاطىء» كان رغم اضطراد المعرفة الاساس الجوهري، والذي تستند اليه الاحتكارات كي ترسخ حكمها الشامل.







في المواجهة

تمتلك الطبقة العاملة في الظروف الحالية من نضالها السياسي، الطبقي امكانات ضخمة كبيرة لمواجهة تحديات الاحتكارات التي برزت منذ الاربعينات وعقب الحرب الكونية الثانية ضمن اشد اشكالها خطرا وعنفاً وجبروتاً، وهذا الشكل المريع للاحتكار هو مايسمى بالمختلط العقلاني.

والاحتكارات المختلطة غير العقلانية هي (اتحادات احتكارية) متعددة الهويات متشعبة المواقع، حتى أن غوس هول السكرتير العام للحزب الشيوعي الأميركي كتب عنها قائلاً أنها:

« تشكيلات فوضوية بشعة نتيجة لتطور القوانين الداخلية للراسمالية الاحتكارية»

وعندما توصف بالفوضوية على لسان السكرتير العام للحزب الشيوعي الأميركي فان ذلك يعني انها من حيث النمو تفتقر لكافة اشكال التوجيه والتخطيط، فنموها مقرون بالسعي الدائم من اجل الربح.

وتكتسب كلمات «هول» ثقلا خاصا في تقييمها لهذه الاحتكارات ضمن المرحلة التاريخية الحالية للرأسمالية لأنها (اميركية) اكثر من اي شيء آخر.. فرغم التعدد في ميادين رسملة مثل هذه المؤسسات وتنوع هوية اصحاب الرساميل، وتشعب نطاق امتدادات الاستثمار (الاقتصادي والعسكري والسياسي) تبقى اميركا موجهة رئيسة لكبريات هذه الاحتكارات، حتى ان كبار الممولين منحوا رساميلهم هوية اميركية رغبة منهم في استزادة نفوذهم.

ان الوجه الحالي للاحتكارات المختلطة اكثر قبحاً وخبثاً حتى من عمالقة الاحتكارات:

فهي عبارة عن اندماج عمالقة تتشكل بنتيجته ما يسمى بفوق العمالقة. وبسهولة يتم ابتلاع الاحتكارات العملاقة التي تبلغ قيمة موجوداتها قرابة مليار دولار.

وبين العمالقة نشأت وتنشأ هذه الاحتكارات المختلطة التي تستهدف منح الرأسمالية سمة التوحد في مواجهة وحدة الشعوب.

لكن على الرغم من قباحة هذا الموجه الجديد وشراسته فإنه لم يستطع التستر على اثار المرض والشحوب البادية عليه، انه شرس مستعد ليبصق على البشرية وحتى يلوكها بأسنانه لكنه غالبا مايجد نفسه امام حائط صلب يمنع عليه ذلك لأن التطور السريع الذي ميز نمو الاحتكارات المختلطة مدفوعاً بنزعة التسابق والبحث عن الربح بشراهة يفتقر لكافة مستلزمات النمو العاقل وهو بالتالي ليس غير شموخ منخور يقوى على النهوض بسرعة لكنه لايمتلك مايتيح له دوام هذا النهوض السريع، ومثل السمات لابد أن تؤدي الى وقوع الاحتكارات المختلطة التي هي

نتيجة لظهور جلطات مالية في عروق الامبريالية الشائخة.

وقيادة المعسكر الرأسمالي عندما اصبحت في اميركا فإن ذلك مرده النهوض الصناعي الواسع والاستثمارات الضخمة للرساميل الكثيرة، الولايات المتحدة صراعا عاتيا بين الاحتكارات حتى ان هذا الصراع انعكس على مجرى الاحداث السياسية (الواضحة) اي تلك المقرونة بالتنافس بين عائلة كندي وكبار رجال النفط او بالحقيقة بين اصحاب العقارات الذين يهمهم كثيرا انخفاض اسعار مواد الطاقة وبين اصحاب الطاقة الذين لايستسيغون ذلك، وعندما سقط جون في دالاس موطن اصحاب ابار النفط واستثماراته كان ذلك الحدث تحذيراً للبقية الباقية من أن احتكارات الطاقة الضخمة مستعدة وقادرة على ان توقف كل شيء دفاعاً عن مصالحها الضخمة..

ويبرز مصرف (مانهاتن) في نيويورك الذي تمتلكه احتكارات روكفلر - ذات الاستثمارات الضخمة في النفط والمعادن - في مقدمة هذه الاحتكارات، وتتوزع مؤسساته الـ ١٦٠٠ في كافة انحاء العالم..

ان الاحتكارات بشكلها هذا تمتد في بقاع عديدة، وتحمل هوية مختلف البلدان الاخرى، لكنها تبقى اميركية بشكل غالب، وهي اضافة لمهماتها في استنزاف ثروات الشعوب وطاقاتها البشرية فإنها تستهدف التحايل على البلدان النامية وابقائها ضمن اشد حلقات التبعية، وعندما يعلن احد هذه البلدان رفضه للتعامل مع مؤسسة اميركية او انكليزية يجد ان مؤسسة اخرى تنتج نفس السلعة المصنعة تقدم له عروضا بيراءة.. رغم انها تخضع بنفس الاحتكار الرئيسي.. وهكذا تأتي السلعة المصنعة من استراليا او هولندة لكنها لاتحمل هويتها الاميركية علناً.

إن لهذه اعتماداتها خارج بلدانها وهي تقود الانتاج وتسوق المنتوج في عدة بلدان وتستغل العمال ومستخدمي القوميات الاخرى.

وبقدر ما يتعلق الامر بالطبقة العاملة فان الاحتكارات المختلطة تمثل من حيث تواجدها الاخطبوطي ردا على الانتظام الوحدوي للطبقة العاملة بحكم تماثل مهماتها في البلدان النامية المضطهدة بطبيعتها، وتتأكد اهمية النضال العمالي الطبقي ـ القومي باستمرار بحكم تزايد فاعلية مثل هذا النضال في تقويض سلطة الاحتكار التي تتعزز بمقدار ماتكسبه من ارباح وما تحققه من انتصارات..

وعندما تكون الاحتكارات المختلطة صاحبة المصلحة الرئيسة في شن حروب العدوان ضد فيتنام وكوبا والشعب العربي وشعوب افريقيا يكون النضال ضد هذه الواجهات العدوانية (تل أبيب، حكومة العملاء في سيؤول، سالزبوري، بريتوريا،...الخ) نضالا مؤثرا ضد هذه الاحتكارات... ومما يزيد في طاقة الشعوب المناضلة ذلك الدور الذي يلعبه عمال بلد الاحتكارات في تقويض فاعلية دوره..

والاحتكارات المختلطة التي تدرك جيدا هذه القضية وزعت نشاطاتها توزيعا خاصا يستهدف بالدرجة الاولى دوام استمرار الدفق الكبير من الارباح الذي يغمرها باكداس الذهب، هذه الاحتكارات تحاول بحكم امتلاكها لهويات متعددة (اميركية... انكليزية) ضمن حدود ساحتها الاقتصادية في العالم..

ولم تتورع الاحتكارات عن كشف بعض اوراقها العلنية في تدبير الحروب، فهي تسعى ايضا لاستخراج النفط، والمعادن الاخرى، ولكي تضمن هذه المواقع الاقتصادية (اضافة لكافة الضمانات العسكرية والسياسية للسيطرة على منابع النفط بالعالم) تقف هذه الاحتكارات وراء تنفيذ مشروع أتمته الحرب في الخليج العربي بعد مرحلة الفشل لمشروع الفتنمة بالهند الصينية، ولايهم هذه الاحتكارات ان تعهد مهمات تقتيل الشعوب للأجهزة الاوتوماتيكية واسلاك ارسال الموت...

وشركة التلغراف الأميركية ـ حسب تقارير الصحفي الاميركي اندرسون كانت تقف وراء كافة التحركات المضادة لحكومة شيلي، وثبتت الشركة مساعيها اول الامر في حدود نسف الواجهات التنظيمية الشعبية التي تشكل اساس ضمانة نجاح الجبهة الشعبية..

وكانت الخطة تقضي بتقويض كافة مواقع انتصار الجبهة ومنعها بشتى الاشكال ومنها الضغوط الاقتصادية، وايجاد اوضاع تتيح حصول انقلاب عسكري على يد فياوكس ماراجيو الذي سبق له ان ادار تحركا تمردياً داخل احدى ثكنات سانتياغو..

ولايهم هذا الاحتكار أن ينفق آلاف الدولارات على عملائه لكي يبقى على استثماراته البالغة ٢٢٥ مليون دولار، ويتأكد التعانق الوثيق بين هذه الاحتكارات والبيت الابيض وهذا مانقلته نيوزويك على لسان اندرسون:

«واستلم السفير ادوارد كوري برقية من الخارجية الاميركية تمنحه الضوء الأخضر للتحرك باسم الرئيس نيكسون. وكان هذا التبليغ يمنحه كل سلطة لتحقيق ماهو ممكن على غرار تجربة الدومنيكان لكي يمنع الليندي من بلوغ السلطة».

وهذا التداخل الكبير بين الاحتكارات واجهزة الدولة العسكرية الجاسوسية هو الذي يميز رأسمالية الدولة الاحتكارية في هذه الفترة، ويستحيل الفصل بين القوتين، وكل نضال ضد أحدهما هو بالضروة يحتم النضال ضد الآخر.

والاحتكارات المختلطة لاتشكل ضمن المرحلة الحالية من ا لرأسمالية غير صورة للأزمة، لكنها وفي حدود دفاعها عن ارباحها الضخمة تستخدم كل شيء لمنع النمو الطبيعي للطبقة العاملة، خاصة وأن طبيعة التوجه التاريخي للتطور تفرض نفسها بثقل واضح على مجرى الصراع الدائر ضد هذه الاحتكارات..

وفي ظروف اشتداد الوعي العمالي وتحقق انتظامهم النقابي والسياسي في بلد ما تتسع فروع هذه الاحتكارات المختلطة، بصعوبة استمرار استنزاف طاقاتهم بحرية فتقوم بنقل فرعها نهائياً الى مكان آخر.

وبكلمة أخرى فإن الشركات تنقل مكان عملها الى مناطق يعيش عمالها ظروف استلاب اكثر قهراً..وحيثما تختفي ظاهرة الوعي العمالي تنمو هذه الشركات وتثرى بشكل ضخم..

فمثلا نجد الشركات:

«وستنغهاوس الكترك، انترناشنال بزنس، سنجر، امرسون ، جنرال الكترك، راند». نقلت مؤسساتها الى اليابان والمكسيك وجنوب كوريا وهونغ كونغ وتايوان ومناطق اخرى حيث اجور

العمال أقل مما هي عليه في أميركا واوروبا الغربية.

ويذكر هنا ان اجور عامل مؤسسة فورد في تايوان /٢٧٠/ دولارا سنوياً وفي كوريا /٩٠/ دولاراً اسبوعيا والمرأة العاملة تتقاضى اجرا اقل.

والاحتكارات المختلطة (ذات الرساميل الاميركية بشكل غالب) تسعى سعيا مثبتاً لتقويض الحركة العمالية في بلدان المعسكر الرأسمالي، وتعرضت الحركة العمالية في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بشتى الضغوط والمناورات بقصد منعها من ممارسة اية نشاطات تعيقها وتمنع عليها اكتناز اكبر الارباح.. ومن هذه المناورات شراء ذمم بعض الوجوه النقابية عن طريق منحها (مواقع سلطة) تماما كالتي حصل عليها الرقيب العسكري الاميركي الزنجي دوايت جونسون عندما منحته السلطة الاميركية وسام الفخر بقصد جعله يافطة استعراض لخداع بقية الزنوج وايهامهم بالتبجيل المصطنع.. واوجدت الاحتكارات الأميركية من جورج ميني واخرين ادوات موجهة ذات صلاحيات واسعة لتمزيق الحركة العمالية.

وحقن جسدها بزرقات التخدير.

وفي مجلة رامباراتس الاميركية التقدمية فضح باول جاكوبز حقيقة الدور الذي يؤديه جورج ميني في خدمة وكالة المخابرات الاميركية المعنية المباشرة بنسف امكانية قيام اية وحدة تنظيمية عمالية، وقال جاكوبز:

«ان جورج ميني رئيس اتحاد افل سيو اما كاذب او مجنون فهو كاذب اذا كان ينكر معرفته بسيطرة وكالة المخابرات على الاتحادات متعمداً.
وهو مجنون اذا كان انكاره حقيقيا: لأن المجانين وحدهم لايعون مايدور حولهم لمدة طويلة».

ولاتنحصر مهمات أمثال جورج ميني في نطاق نسف الوحدة النقابية في الولايات المتحدة الاميركية بل تتعداها الى مجالات أوسع تمتد الى الاتحادات العمالية العالمية فتذكر مجلى رامبارتس الاميركية في أحد أعدادها صيف ١٩٦٧ أن (ل. دي. تايت) رئيس اتحاد عمال النفط الدولي يشرف بنفسه على عمليات تمويل التنظيمات ذات الاسماء العمالية المزيفة التي تخدم كواجهات في شق الانتظامات النقابية ضمن الاطر التنظيمية.

ولمثل هذه الواجهات المزيفة مصادر تمويلها التي تمتد مباشرة الى اروقة المخابرات، وحتى عندما حاول (صاموئيل بتلر رئيس عصبة التنمية الاجتماعية والتعاونية العالمية، تغطية حقيقة مصادر ميزانية هذه العصبة بحجة استلامها كمساعدات غزيرة كان العمال يدركون طبيعة (مصدر) هذه المساعدات.

والذي يحصل في الولايات المتحدة الأميركية يمكن ان يكون نموذجاً مجددا لطبيعة النشاط المضاد للتنظيم النقابي في الغرب عامة واذا كانت مؤسسات الاحتكارات في انكلترا تتخذ سلوكا عدائيا صريحا ازاء العمال فانها في الوقت الحاضر وبعد نضوج التنظيمات النقابية وجدت نفسها في مواجهة تحد عنيف قوامه الوحدة التنظيمية الطبقية.

ان التطورات التالية سواء تلك التي تحدث على الأصعدة الداخلية وتنامي الوعي عند العمال او تلك التي تحدث على الصعيد الخارجي (حيث تنامت قدرات عمال البلدان المستعمرة في مواجهة الاستلاب) لم تمر دون ان تجري الرأسمالية تجديداً مناسبا في اساليبها للضغط على العمال، ويتعاظم دور رأسمالية الدولة الاحتكارية سخرت وسائل واجهزة الدولة تسخيراً كبيراً ضد العمال لخنقهم وتطويقهم.

والتجديدات الرأسمالية في نطاق محاربة الحركة العمالية يمكن ان تتوضح من خلال عدة نماذج عمالية معاصرة.

■ النموذج الأول:

العامل البريطاني:

وليكن هذا العامل احد عمال المناجم، ورغم أن عمال المناجم يحتلون مركز الصدارة في نسب الأجور بالنسبة لبقية العمال لكن اجورهم لاتتناسب وطبيعة المشاق التي يتكبدون.

وليقع اختيارنا على:

سدني كرفنز الذي اختارته مجلة نيوزويك:

اذ قضى كرفتز ٤٢ سنة من سنوات عمره الـ (٥٨) في منجم روسنغتن، وطيلة هذه السنوات كان عليه ان يسير مسافة ١/٥٠٠ ياردة لبلوغ المنجم ويعمل في درجة حرارة ٨٨ لابسا الشورت والحذاء الطويل، تجلس على ساقيك، ويستمر العمل

ثمان ساعات وربع تقضي ثلثيها واقفا. ليس الامر سيئاً جداً عندما تعمل لكن الالام تأتيك بعدئذ.

انه كأغلب عمال المناجم يشكو من عدة امراض بسبب عمله في جوف الارض..

صحيح ان كرفتز يتقاضى ٦٥ دولارا اسبوعيا لكن هذا الاجر لايكفي لسد نفقات الكهرباء والملابس والطعام ومدارس اطفاله.. وليس غريبا ان يواجه واحد مثله المستقبل وهو أعزل:

«ثروتي شلن واحد اضافة لما لدي من اثاث وملابس في منزلي»

ويتحدث كرفتز بسخرية عن طبيعة هذا الوضع قائلا:

«ليس ظهري مكشوفا للحائط تماما حتى الان، ولم يحن الوقت الذي احرق فيه اثاثي لتكفيني وقودا»

■ النموذج الثاني:

هو عامل البلدان التي مازالت حقولا لاستغلال الاحتكارات الاجنبية.. ويعاني هذا العامل من تعسف كبير، ويتعرض لشتى صنوف الاستغلال النهم.

ففي هذه البلدان لم تكتف الاحتكارات باستغلال ثرواته الطبيعية بل تستغل حتى أبعد الحدود طاقاته الجسدية، وهي لكي تضمن دوام ذلك مستعدة لقتل عشرين عاملا كل يوم اذا كان هؤلاء يشكلون (خطرا) تنظيمياً ضدها.

هذا النموذج يمكن ايجاده في ناميبيا مثلا، وليكن من بين قبائل اوفامبو.. اذ كان عمال المنطقة المذكورة يعنون بالنسبة للحكومة العنصرية البيضاء ميدان استغلال خصب.. وواحدهم (في اعتبارات الحكومة العنصرية) يرى في تشغيله من قبل البيض فضلا كبيراً.

فبينما كانت بقية القارة تكتسح بانتفاضات القوة السوداء بقي الاوفامبو مسالمين دؤوبين شاكرين قيام الحكومة باستثمار ملايين الدولارات لتطوير اراضي الافامبو.

والتطوير الذي يتحدثون عنه هو في الحقيقة مشاريع الاستغلال العنصرية للثروات والطاقات الافريقية.. ويتقاضى العامل الافريقي اقل نسبة اجور في العالم.

ان عمال الاوفامبو وصلوا مرحلة متقدمة من الوعي عندما اعلنوا الاضراب في بداية السبعينات ملحقين الشلل بمناجم الذهب والنحاس في جنوب افريقيا.

وكان للاضراب كبير الأثر لا في ضرب مصالح حكومة بريتوريا بل ومؤسسات الامبريالية عامة..

واستغرب في حينها فورستر كيف يقوم الاوفامبو بهذا الاضراب متجاهلا حقيقة ان الفقر الذي منعهم من مزاولة النضال السياسي كان يمزق لهم قلوبهم ويضاعف من تلك المشاعر الملتهبة التي لابد ان تدفعهم الى العمل حال انتظامهم في اطار تنظيمي موحد.. وكان قانون (عقد العمل) الذي يقضي بأن

«يقيد العامل من الاوفامبو بأجر معين لمدة ١٨ شهرا في مناطق صناعات البيض شريطة الا يجلب عائلته معه ولايقوم باية محاولة تعني رفضه لنوع معين من العمل»

هو الذي اثار حماس العمل وحفزهم للعمل.

واتهمت اجهزة السلطة العنصرية ١٢ عاملا بقيادة حركة الاضراب وكان من بين المتهمين عامل يبلغ من العمر ٢١ عاما.. يتقاضى دولارين و ١٢٪ من الدولار اسبوعياً!!

ان السلطات العنصرية البيضاء (التي تمثل وجها كولونياليا استيطانيا كما تمثل جهازا للاحتكارات العالمية لتحقيق مصالحها في استغلال ثروات وايادي البلد المحتل العاملة) تتعامل مع عمال ناميبيا على اساس ان افقارهم سيدفعهم الى العمل حتى وان مانعوا بادىء ذي بدء..

لكن الفقر الذي ارادت منه العنصرية ان يجعل من اهالي البلاد عبيداً لخدمة المصالح والمؤسسات الجشعة دفعهم لان يخوضوا نضالا مريرا ذا وجهين قومي وطبقي ولذا تحتدم المنطقة برمتها بروح معاداة ومحاربة العنصريين واحتكاراتهم..

وكانت مفاجأة كبيرة للعنصريين عندما اندفع ستة آلاف عامل من الاوفامبو في مسيرة نحو العاصمة الادارية.. والسلطة التي رأت في ذلك امرا ليس غريبا وانما في منتهى الخطر والحذر نفذت اوامر ضربهم بالرصاص وسجن بعضهم..

لكن العمال اوجدوا وضعاً جديدا في المنطقة الثانية بعد فلسطين التي تشهد أشرس احتلال استيطاني مسلح: اذ عاقبوا كافة المتعاونين مع العنصريين من بين الأفارقة بقوة وعنف.

والنموذج العمالي هنا يمكن ان يكون موجود او غير موجود بالفعل حتى في البلدان المستقلة فحيث مازالت بعض الشركات الغربية تعمل في جمهورية الكونغو الشعبية حسب اتفاقيات سابقة تعاني الدولة الكثير من مضايقات هذه الشركات ويعاني العمال الامرين من سياسة هذه الشركات ذات المسلكين الخطيرين:

□ □ المسلك الاول: ارهاق العامل عمليا بزيادة ساعات العمل وماديا بمنحه اقل نسبة من الاجور بالنسبة لتكاليف المعيشة، وفي شركة المانية لصناعة الخشب يتقاضى العامل ٥٠ فرنكا عن كل ساعة، لكن كيلوغراما من اللحم يكلف الف فرنك!!

□ □ المسلك الثاني: التحايل على العمال، ويأخذ هذا التحايل عدة اشكال منها تضليلهم واستهلاك الجدية التي تميز تسلكاتهم اليومية عن طريق تشجيعهم على السكر والعربدة كما تفعل شركة بريما البلجيكية.
وتبذل هذه الشركة قصارى جهدها لمنع حصول اي وعي طبقي، وهي تشجع البعض على السكر بافراط لتقتل عندهم اية نوازع ثورية.

والشكل الاخر للتحايل هو عزل القائد النقابي عن العمال بنقله عن مركز الاعمال الفنية الى مواقع اخرى تتيح لها منعه من ان يحتك بالوسط العمالي، وهذا يعني انه لن يكون بعد الآن في مكانة مميزة بين الوسط العمالي نفسه.. وهكذا يجري التخطيط لعزله واسقاطه في الانتخابات القادمة..

وعندما يفقد صفته القيادية، تبدأ الشركة انتقامها منه كأن توجد شتى مبررات طرده..

■ النموذج الثالث:

هو (العامل الضيف)

اي العامل الاجنبي الذي يعمل في البلدان الراسمالية، وتشجع الاحتكارات الرأسمالية هجرة الايدي العاملة الى بلدانها لانها تحب انقاذهم من غائلة الجوع والحرمان كما تدعي بل لأنها تبحث عن اياد رخيصة خالية الوفاض بعيدة عن التنظيمات النقابية التي تفرض اجورا محددة لساعات عمل محددة.

ان غالبية البلدان التي تهاجر منها هذه الايادي فقيرة، وحكوماتها نفسها تشعر بالارتياح في بعض الاحيان عند اختفاء هؤلاء الذين لابد ان يثيروا شعورا بالقلق والامتعاض ان حكومات هذه البلدان لاتريد ضغوط البطالة التي غالبا ماتكون مفتاح نهايتها، وهي لهذا السبب تقدم في بعض الاحيان تسهيلات واسعة لتهجيرهم:

ونموذج (العمال الضيوف) الذين يطوفون اوروبا (بعض بلدانها فقط) يعاني من اشد حالات وظروف الاضطهاد.. ورغم ان رجال الاعمال والمصالح في الغرب يقولون في تبريرهم للاجحاف الذي يلحق بالعمال انهم لايمتلكون خبرة تفيد في شيء، الا انهم في الحقيقة يتعاملون مع اصحاب الشهادات الاجانب حسب الاسس نفسها.

«نقابي برتغالي شكا قائلا ان الأطباء والمحامين والمهرة الشباب من العمال البرتغاليين هجروا بلادهم الى فرنسا بحثا عن العمل.

لكن ارباب الأعمال الفرنسيين لايهتمون بشهاداتنا قدر اهتمامهم بعضلاتنا. وغالبا ماينتهي الاطباء الى أعمال البناء».

ولا توجد نوايا لدى أرباب العمل لتعليم هؤلاء خبرات جديدة، وحسب ما تذكره الصحف القادمة من هناك:

ان مهاجراً فرنسياً شكا بحزن قائلاً إني قادر على التقدم لو منحت ثلاثة أيام من التعليم، ولا متلكت مهارة..

لكن الذي يفعلونه دوماً هو أنهم يضعون المكنسة في يدي قائلين لي اكنس هنا ونظف هناك.

ويمارس أرباب العمل شتى صنوف الأساليب لمنع وحدة هؤلاء العمال المهاجرين وانتظامهم في كيانات نقابية، فمثلاً يوزع رب العمل العمال القادمين من الجزائر في عدة أماكن، وكذلك بالنسبة للايطاليين والاتراك واليونانيين. فالعامل الجزائري يجد معه تركياً ويونانياً وهندياً.

.... وبكلمة أخرى فان أرباب الأعمال المديرين يوجدون كافة الحواجز الممكنة لمنع انتظام وحدة هؤلاء...

ويستعيد أرباب العمل والمدراء في المؤسسات الرأسمالية نفس أساليب رجال الأعمال الانكليز في بداية القرن التاسع عشر عندما كانوا يأخذون تعهدات خطية من العامل لتأكيد تقييده، وارباب العمل في أوروبا يأخذون تعهدات خطية من العمال الضيوف أيضاً، ويذكر (آلان تيليه) مراسل مجلة نيوزويك أن رئيس اتحاد عمال النقل الفرنسي في اللورين أكد له:

> أن أرباب العمل يمنعون العمال الأجانب من الانتظام في النقابات الفرنسية قائلين لهم أن الطرد يصيبهم اذا ما فعلوا ذلك.

ويمارس أرباب العمل حرباً نفسية ضد العمال الضيوف مشعرين إياهم بأنهم مجرد ضيوف، استضافهم أرباب العمل كرما منهم وحساً بمساعدتهم، لا لأنهم يجدون فيهم طاقة عمل وانتاج رخيصة جداً... في ظل ظروف كهذه يضطر العمال الضيوف الى الصمت وعدم المطالبة برفع اجورهم وتحسين ظروف عملهم، حتى ان بعض الواعين منهم أخذوا ينتمون سراً للنقابات... لكن بعض مناطق أوروبا شهدت اسناداً نقابياً كبيراً للعمال الضيوف... ففي مصانع الصهيوني الاحتكاري الفرنسي - الانكليزي روتسشلر في ليون وباريس أضرب هؤلاء العمال وساندهم اتحاد عمال النقل الفرنسي وارغمت المصالح المذكورة على رفع اجورهم.

وتشهد ألمانيا تمييزاً مقيتاً ضد العمال الضيوف (الاجانب)، وتكشف الاعلانات المنشورة في الصحف طبيعة العنصرية المقيتة التي تملأ ذهن البرجوازيين الألمان، والاعلانات ليست بالضرورة صحيحة قدر كونها مخططة دعائياً لتحطيم نفوس هؤلاء الأجانب.. هناك اعلان يقول:

> «للبيع منزل في حالة حسنة، له مظلاته ملائم لإيواء الخيول والعمال الضيوف»

ويكتب الصحفي الألماني (هانز جيبرت) قائلاً:

> «لدينا قانون يقول أن كلب الراعي يجب أن تتوفر له مساحة سكنية لا تقل عن ١٥ متراً مربعاً، لكن ثلاثة أمتار مربعة ستكون كافية لايواء العامل الأجنبي. وما دمنا نرى في الايطالي آكل المعكرونة دوماً والتركي صاحب بلطة (يحب استخدامها) خوف لانبلغ نتيجة معينة،

انـا ببساطة نتحسس مشكلتنا الزنجية الخاصة. والعمال الضيوف هم سود ألمانيا»

والولايات المتحدة الاميركية التي أرادت منذ ١٨٨٤ أن تضع حداً للمطالب العمالية أوجدت اتحاد عمال (افل سيو) وأوكلت رئاسته لجورج ميني، وجورج ميني هذا وكيل مخابرات رسمي وهو معتمد مباشر للاحتكارات، وهو وجماعة من أمثال (جي ليفستون) و(دي. اي. تايت) يشرفون بأنفسهم على عمليات تمزيق الوحدة النقابية للعمال، وعزل العمال النشطين، ولهم دوائرهم المشرفة بصورة مباشرة على عمليات تمزيق الاتحادات النقابية في الخارج... وكان (ال. دي. اي. تايت) رئيس اتحاد عمال النفط الدولي الاميركي هو المشرف المباشر على عمليات تخريب الحركة العمالية.. وعمليات التخريب هذه سياسة (ايديولوجية) تشتمل على الفكر بالدرجة الأولى.. فهي من أجل غاياتها في أوروبا مثلاً:

سعت لاثارة مسألة (العامل العادي) و(الذهبي) مشيرة الى أن المهندسين والتقنيين (العمال ذو الياقات البيض) هم أنفسهم أصبحوا في موقف الصراع مع العمال العاديين... ورصدت الصحف الدعائية طاقات خاصة لاثارة هذا الموضوع، حتى أن المسألة وجدت استساغة خاصة من لدن بعض الاشتراكيين المبالغين في الانفتاح على الايديولوجية الغربية المضادة....

ان العامل (وكما أكدته المقارنات السابقة بالنسبة للعمال الضيوف) يعاني من الاضطهاد سواء أكان يمتلك المهارة الفنية أم لم يمتلك... حتى أن البحث عن طاقته الجسدية في الأعمال غير الفنية الرخيصة يأتي في صدارة بحث المؤسسات الاقتصادية الاميركية الدائب.

وجي ليفستون هو ما يصطلح على تسميته بوزير خارجية جورج ميني اشارة الى أنه يشرف بنفسه على ايجاد اتحادات عمالية مزيفة في الخارج لاحباط مساعي العمال للانتظام في اطر نقابية تدافع عن حقوقهم..

وليفستون يحقق للاحتكارات العمالية الاميركية مهمات كبيرة على أساس أنه سبق أن كان قائداً تقدمياً مرموقاً وشغل سكرتارية الحزب الشيوعي الاميركي قبل

طرده عام ١٩٢٩ ... وهو من خلال فهمه سعى سعياً حثيثاً لاسقاط هذه التنظيمات وايجاد واجهات مضادة...

وتزعم ليفستون اتحاد عمال السيارات.. وهو نفسه الذي أسهم اسهاماً مباشراً في ايجاد اتحاد عمالي معاد لاتحاد العمال العالمي.

وكانت احتكارات النفط مهتمة كثيراً بعميليها ليفستون وايرفنع براون وكلاهما أتاح لها منع حصول حركة عمالية صحيحة تفضح احتكارات النفط العالمية تواجهها، وعلى ضوء توجيهات ليفستون وايرمنغ براون أوجدت تنظيمات مشبوهة في كافة البلدان المنتجة للنفط غير المتحررة من سيطرة الاحتكار داخل أوساط عمال النفط، وكانت المجلات والصحف التي تصدرها هذه الأوساط تستهدف بالدرجة الأولى حرف العامل عن وعي مهماته الأساسية!!.

وليس غريباً بعد ذلك أن يكون ليفستون عضواً في مجلس الأركان الستراتيجي التابع لمجلس الأمن، وجورج ميني من بين مقرري السياسة الداخلية الاميركية..

وبكلمة أخرى فان جورج ميني يشرف على منع حصول حركة عمالية في داخل اميركا، أما ليفستون فمهماته تتعلق بحماية مصالح الاحتكارات في الخارج..

ومهمات أمثال هؤلاء الأساسية لتحقيق ضمان استمرار هذه المصالح هي بالدرجة الأولى نسف مقولات العمل النقابي، ويتم تنسيق جهود هؤلاء مع وكالة المخابرات المركزية لـ:

١- ايجاد مجموعات خاصة من ذوي العلاقة بالعمل النقابي، يمكن الاستفادة منها (أي هذه المجموعات) في ايجاد أوساط (اميركية النزعة) في الخارج... وهؤلاء عادة يقبضون موضوع الدفاع عن (حرية) العمل في اميركا، وكثرة الخير... واذا ما سألهم واحد عن سر تناقض ما يقولون مع ما يحل بالسود. يقولون أن السود ليسوا (بشراً) تماماً، والذين (آمنوا) منهم بضرورة (التحرر) من أنفسهم احتلوا (مراكز حسنة في الدولة).

وتهتم هذه المجموعات بذلك النوع من العمال الذين يؤمن بانتزاع حقوق العمال لكنه في الوقت نفسه يرفض الاشتراكية العلمية، وهذا التضاد العنيف بين موقفين لا يمكن أن يقود الى نظرة موضوعية مستقبلية.

٢- تشجيع انهيار النظام والبنية الداخلية للنقابة بوضع الحواجز بين قادة النقابة وأعضائها، ويقول أحد قادة عمال النفط الاميركان:

«ان أعضاء الاتحاد العاملين في الآبار النفطية والمصافي ومراقبي أنابيب النفط تعرضا لأكبر عملية خداع، فهم يعتقدون أن اتحادهم لا يعمل شيئاً في الوقت الذي يقوم فيه بدور آخر».

وهكذا بدل أن تكون قيادة مثل هذه الاتحادات وثيقة الصلة بالأعضاء تمارس مهمات أخرى مناهضة لمصالحهم... ولابد أن يقود هذا الانفصام في النتيجة الى حصول قناعة لدى الأعضاء بلا جدوى العمل النقابي، وبالتأكيد فان هذا ما تريده الاحتكارات التي تواجه ضغطاً متزايداً من التنظيمات النقابية.



احتضار الحرية

أما الحرية الدستورية للأمريكي المتوسط فلم تتعرض للخطر منذ زمن طويل مثلما تتعرض له الآن... فأزمة الديمقراطية الاميركية ليست نتاج خيال بعض الناس وانما هي حقيقة واقعة ستكون لها انعكاساتها الكبيرة ليس فقط في داخل الولايات المتحدة وانما في كل العالم الرأسمالي أيضاً.

○ «فريشارد هوستاتر» استاذ التاريخ في جامعة كولومبيا قال:

«اعتقد بأننا سنكون سعداء جداً لو استطعنا الخروج من هذا الوضع دون حدوث انقسام في الجناح اليميني... ان ما يقلقني هو ليس كون الشباب متطرف أو استعداد السود للقيام بثورة، وانما هل نستطيع المشاركة في مرحلة جديدة، رهيبة من الرجعية؟».

○ و«أوجين جيفوز» عميد كلية التاريخ في جامعة دوشستر يقول:

«ليست هذه الأزمة الأولى التي تمر على الولايات المتحدة.. لكنها الأولى من نوعها... اذ يواجه البلد اليوم ولأول مرة تزعزع عنيف بايمانه بمثله العليا وبمؤسساته وبمستقبله.. انها هزة مست كل قسم وكل طائفة وكل طبقة من المجتمع..»

○ و«ستداكتون ليند» استاذ في جامعة ييل يقول:

«يزداد الاضطهاد والاستبداد في الولايات المتحدة لأن طبقات المجتمع العليا تصر على أن يبقى كل شيء كما هو لكي لا تفلت الأمور من أيديها.. وسيان بالنسبة لهذه الطبقات أن يكون الآخرون موتى أو يعتقدون بشيء آخر.. انها هي التي تمسك بزمام السلطة.. وهي التي تتكلم أكثر من غيرها عن القوانين والنظام لأنها بحاجة لها.. ولا تعتقد بوجود أي داع لتبديل ما موجود..».

○ أما المؤرخ الأستاذ الشهير «هنري ستيل كوماجر» فيقول:

«قال بنجامين فرانكلين أن الذي يتخلى عن احدى الحريات الأساسية ليضمن أمن شحيح ومؤقت لا يستحق لا الحرية ولا الأمن... ونحن اليوم نعمل عكس ما أوصى به.. فلقد دفعنا الضجر والغضب والخوف الى التخلي عن حرياتنا الأساسية ليس للحصول على الأمن وانما على مظهره فقط.. انتهكنا المساواة ليس لتثبيت النظام وانما شكله فقط..».

ان هذه المواضيع تدور الآن في عقول المواطنين الاميركيين.. كما تدور أشياء أخرى مثيرة للفضول..

ففي ميامي (فلوريدا) اقترح مخبر صحفي على الناس توقيع عريضة... لم تكن سوى نسخة من بيان اعلان استقلال الولايات المتحدة...

وقد غزا الأدب الفاشي اميركا.. حيث ظهرت وثيقة معنوية بـ

«قواعد دوسلدروف للثورة»

في عدة طبعات... يقال بأنها قد عثر عليها في دوسلدورن من قبل جنود جيش الولايات المتحدة... وهذه هي القواعد:

«افساد الشباب.. ابعاده عن الدين.. اجباره على الاهتمام بالجنس.. جعله تافها وسطحياً.. زعزعة ارادته.. فرض سيطرة على كل وسائل الاعلام.. تجزئة الناس الى مجموعات عن طريق الجدال الدائم حول المسائل المتناقضة العديمة الأهمية.. تحطيم ايمان الشعب بقادة منظماته اليسارية باثارة عدم الثقة بهم وبالسخرية من أفكارهم والقذف بها... التحريض على اضرابات غير مفيدة في مرافق الصناعة المهمة.. تشجيع الفوضى العامة والتسامح تجاهها».

وتوصل الصحفي جيمس كيلبا فريك أخيراً الى العلم بان هذه القواعد قد نشرت عن طريق (نيوزليتر) صحيفة أقصى اليمين.

ليس المستوى العابث لهذا التلفيق الذي يثير الانتباه وانما سذاجة عدد كبير من المسؤولين الذين نشروا هذا الزيف واعتراف اوكارهوفر مدير مكتب التحقيقات الفدرالي بأنه واحد منهم...

لسوء الحظ لا يمكن الاعتماد سوى على المستقبل الذي سيغير تركيب الكونغرس ويخلق احساس فكري مختلف بين أعضاءه بحيث تدرج هذه القواعد ضمن ملف البوليس...

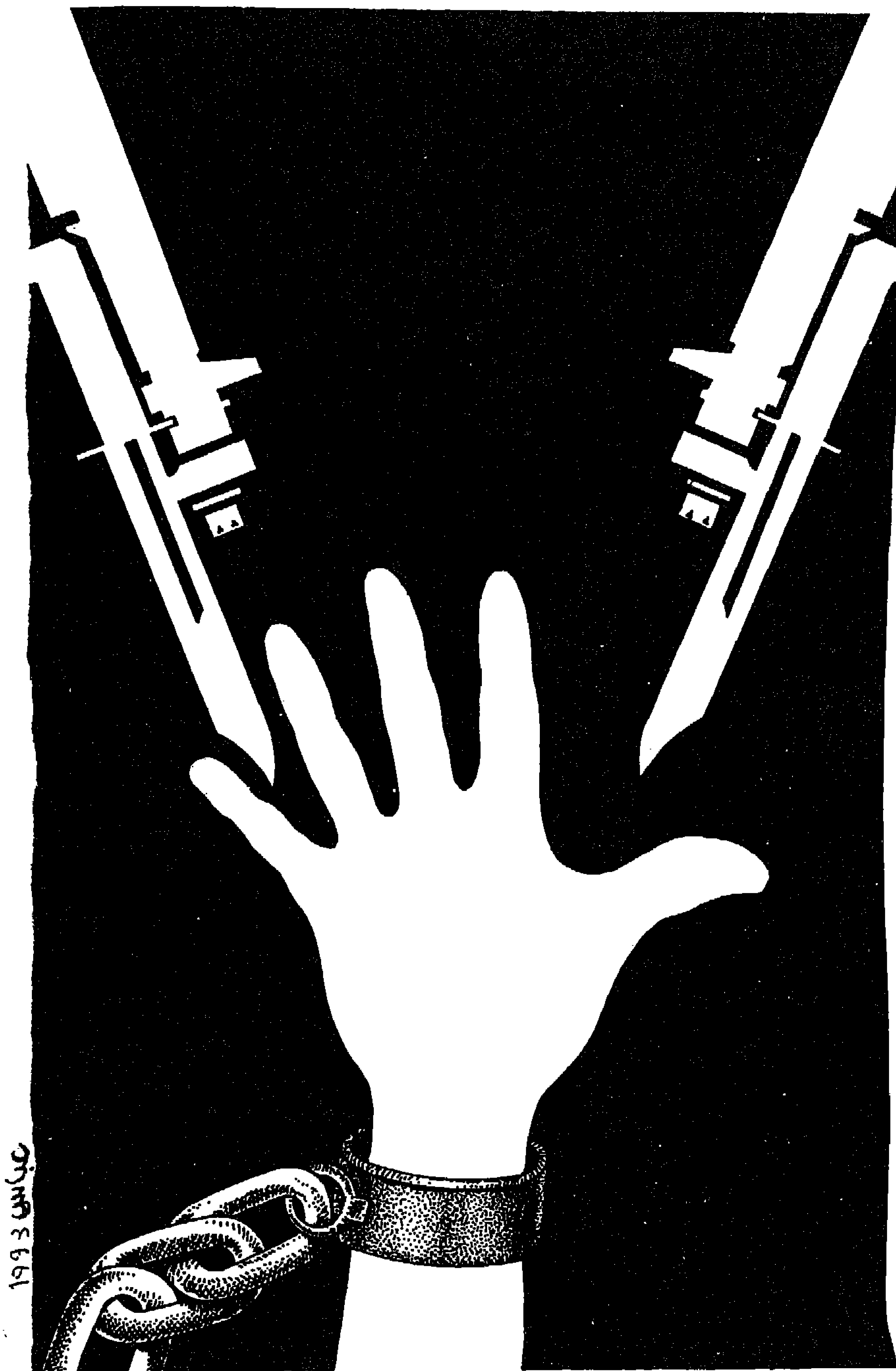
مشاكل الزنوج في أمريكا

يعرف الجميع عمق التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية والتي يرزح تحت وطأتها ملايين السود والمكسيكيين ومئات الألوف من الهنود والبورتوريكيين من مواطني الولايات المتحدة نفسها.

ومنذ الستينات تطورت «المسألة السوداء» لتصبح أكثر القضايا الاجتماعية الحاحاً في الولايات المتحدة ويدعي علماء الاجتماع البرجوازيون ورجال الاعلام الأمريكان أن سبب حركة التحرر السوداء هو الصراع العرقي بين الأجناس البيضاء من جهة والأجناس الملونة من جهة أخرى. كما تؤكد الدعاية الحكومية الرسمية الطبيعة العرقية لانتفاضات السود في أمريكا رغم أن الحقيقة هي أن أسباب هذه الانتفاضات تعود الى عوامل طبقية واجتماعية

فالثورات في الأحياء الزنجية التي يطلقون عليها الآن اسم القضية العنصرية ما هي إلا ثورات ضد الاستغلال.

وقد ذكر المؤرخ البريطاني الشهير (ارنولد توينبي) أن الفتن العنصرية في الولايات المتحدة ما هي إلا نتيجة للامساواة الاجتماعية وما محاولة اضفاء طابع الصراع العرقي على انتفاضات السود لا يعني إلا لتشويه حقيقتها وتغطية جذورها الطبقية الممتدة داخل الحياة الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة وقد سهلت بعض الأحداث السياسية الدولية تطوير وتقدم حركة السود ومن هذه الاحداث الصراع التحرري لشعوب آسيا وأفريقيا وانهيار النظام الكولونيالي وحصول عدد كبير من دول القارة الأفريقية على الاستقلال فقد حصلت معظم الدول الأفريقية والآسيوية على الاستقلال واحتل ممثلوها مقاعدهم في الأمم المتحدة ودخلوا البيت الأبيض زواراً للرئيس الأمريكي كذلك انتصرت الثورة الكوبية وحلها القضية العنصرية، مما أدى الى التهاب مشاعر الملونين في الولايات المتحدة وفي نفس الوقت عرفوا أن تحركهم وحده سيجلب لهم النجاح.


1993

لكن الأساس الطبقي للمسألة التي تشطر الولايات المتحدة الآن الى شطرين يتوضح أكثر اذا درسنا الظروف الاقتصادية والاجتماعية للأكثرية السوداء ولطبيعة عملهم. اذ نجد حالياً أن ٩٥٪ من الملونين هم من العمال ولا تتجاوز نسبة الموسورين والبرجوازيين من الملونين عند ٣ـ٥٪ في حين لا يزيد عدد الرأسماليون منهم عن بضعة آلاف.

وتضم البرجوازية السوداء مجموعة صغيرة نسبياً من رجال الأعمال الصغار والمتوسطين تعمل في تجارة المفرد والخدمات والتأمين وتقوم بعمليات أقراض صغيرة.

أما الطبقة المثقفة فتؤلف ٨٪ من مجموع السكان السود، تسعة أعشار هؤلاء هم من العمال (بالمعنى الكامل لكلمة عامل) وتعمل أكثر من نصف البروليتاريا السوداء في الصناعة والنقل والبناء في حين يعمل الباقي في الخدمات والتجارة والزراعة.

يخدم التمييز العنصري ضد العمال السود مصالح الاحتكارات وذلك بتقليل ما تدفعه لهم من أجور في حين تحصل الاحتكارات على مبلغ يتراوح بين ١٥ ألف الى ١٦ ألف مليون دولار سنوياً كربح اضافي وفي نفس الوقت فوجود طبقة كبيرة من العمال ذوي الأجر المنخفض يهدد بشكل دائم العمال البيض ويتيح للاحتكارات الكبيرة لتوجيه عملها لخفض الأجور مستخدمة القادة النقابيين الذين يعملون في خدمتها والذين يقومون بشق صف الطبقة العاملة الأمريكية.

ان التمييز يبدأ بسلسلة الأعمال التي تسمح للعمال الملونين القيام بمهامهم مضطرون على القيام بأصعب الأعمال وأقذرها وأقلها أجراً فلذلك ينخرطون بالقوات المسلحة حيث يقومون بأصعب وأخطر المهمات ويعمل قسم منهم في الأعمال غير الماهرة.

واذا نجح العامل الأسود في الحصول على عمل فانه يرى ان هنالك فرق بين ما يدفع له وبين ما يدفع للعامل الأبيض الذي يقوم بنفس عمله وكلما ازدادت مهارته ازدادت الهوة التي تفصله عن مثيله من العمال البيض من حيث الآجر.

إن الأمريكي الأبيض في الشمال يحصل على ٦٠٪ أكثر مما يحصل عليه الأمريكي الأسود ذو المهارات المشابهة ويزداد هذا الفرق الى ٩٠٪ في مدن الجنوب. فالدخل السنوي الحالي للعائلة الزنجية في الولايات المتحدة لا يتجاوز ٦٠٪ من دخل العائلة البيضاء.

فثلاثين مليون شخص يعيشون في مستوى أدنى من ما أطلق عليه رسمياً (عتبة الفقر) في الولايات المتحدة من هؤلاء ١٢٪ من مجموع البيض و٤١٪ من مجموع السود وحتى مجلة محافظة كمجلة (يوأس نيوز اندرولدريبورت) اضطرت الى القرار بأن سوء التغذية والجوع أمر طبيعي بين سكان الأحياء السود في شيكاغو ونيويورك وواشنطن وغيرها من المدن.

وبسبب عدم مهارة السود تزداد وطأة البطالة عليهم كما أن الثورة العلمية التقنية أدت إلى أن يفقد أغلبهم أعمالهم وذلك بسبب (عدم امكانية استخدامهم) فلذلك يبلغ معدل البطالة بين السود في المدن الكبيرة ثلاثة أضعاف ما بين البيض وتشير الصحف الأمريكية الى أن ٣٥٪ من الشباب السود متعطلين عن العمل.

وقلة الخبرة، وعدم المهارة ترتبط مباشرة بالتمييز ضدالسود في الشؤون الثقافية. فبالرغم من أن أفراد المحكمة الامريكية العليا الذي يمنع التمييز العنصري في المدارس قد صدر عام ١٩٥٤ إلا أن أية اجراءات فعالة ضد من لا ينفذ هذا القرار لم تتخذ كما لم تتخذ أية اجراءات لتنفيذه ما مكن السلطان العنصرية في الجنوب من نسف قرار المحكمة العليا إلاّ أنه بعد صدور قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤ وبضغط القوى السوداء اضطر العنصريون حتى في أعماق الجنوب الى تقديم بعض التنازلات. وفي السنة الدراسية ١٩٦٨-١٩٦٩ بلغت نسبة الطلاب السود في المدارس التي طبقت الدمج العنصري في ولايتي المسيسيبي ولويزيانا ٧٪ في حين بلغت في ولايات الجنوب بأجمعها ١١٪ ويدرس ٢٠٪ من الأطفال الزنوج فقط في المدارس المزدوجة ومما عقد الوضع ان الادارات في الولايات الجنوبية تتساهل مع العنصريين والتفرقة في السكن هي أحد الأسباب المؤدية الى حدوث تفرقة في الدراسة في المدن الكبيرة في الشمال والغرب حيث يعيش البيض والسود مفترقين عن بعضهم يدخل كل منهم مدارس المنطقة التي يعيش فيها وهكذا نرى أن أحد أشكال التمييز العنصري تقود بالضرورة الى الشكل الآخر.

ففي عام ١٩٥٣ مثلاً كان هنالك ٤٥ ألف تلميذ أمريكي أبيض في مدارس مركز واشنطن وفي عام ١٩٦٩ لم يبق سوى عشرة آلاف تلميذ في حين نزح ٢٠٠ ألف تلميذ أمريكي أبيض الى ضواحي العاصمة ولذلك نجد اليوم ، ٩٥٪ من تلاميذ المدارس في مركز واشنطن هم من الزنوج أما في نيويورك ففي عام ١٩٥٤ كان هناك ٧٤ مدرسة فقط ٩٠٪ من طلابها أما سود أو بيض وفي عام ١٩٦٥ ارتفع

الرقم إلى ١٢٨ مدرسة في حين كان المفروض أن سياسة الدمج ستؤدي الى تقليل عدد المدارس التي يكون غالبيتها اما البيض أو السود.

ان هذه الصورة نجدها في كل المدن التي تضم أحياء زنجية وتبلغ نسبة من يضطر الى ترك الدراسة من الزنوج ضعف البيض ولذلك نجد أن بين كل عشرة زنوج ثلاثة فقط زواراً المدرسة الثانوية وبين كل عشرين زنجي لم يحصل على الدراسة الجامعية سوى أقل من شخص واحد (٤,٣١٪) حين أن نسبة الحاصلين على التعليم العالي من البيض في الولايات المتحدة تبلغ ١١٪.

كما حدثت تغييرات أساسية في مناطق السكن وفي التركيب الاجتماعي للسكان الزنوج وهي تغييرات أدت الى إطالة صراع السود من أجل حقوقهم فقبل الحرب العالمية الثانية كان ٤ـ٥ السكان السود يعيشون في الولايات الجنوبية وأغلبهم إما محاصصين بالمحاصيل أو عمال زراعيين. إلا أن الأزمة الزراعية والمكننة في الزراعة بعد الحرب أدت الى خفض عدد المزارع من ستة ملايين مزرعة عام ١٩٤٠ الى ثلاثة ملايين عام ١٩٧٠ مما أثرت تأثيراً كبيراً على الزنوج اذ اضطر أربعة ملايين زنجي الى ترك الجنوب خلال فترة ثلاثين عام. اما في الوقت الحاضر فان نصف السكان السود يعيشون في مدن الولايات الشمالية والغربية كما أن ملوني شخص ترك الريف الى المدينة في الجنوب.

وهكذا فـ ٤٠٪ من سكان عشر مدن أمريكية هم من الزنوج و٧١٪ من سكان واشنطن من الزنوج أيضاً بالإضافة إلى وجود مليوني زنجي في نيويورك ومليون زنجي في شيكاغو ونصف مليون في كل من فيلادليفيا وديتريت ولوس أنجلوس. ومما يجدر ذكره هنا ان المدن الشمالية اتبعت سياسة سكن عنصرية فأفضل مناطق السكن احتلها البيض في حين أن أسوأها منحت للسود وذلك نتيجة لقوانين وضعتها الادارات المحلية في تلك المدن وعندما أصدرت المحكمة العليا قراراً بعدم قانونية تلك الاجراءات حلت اتفاقات لا رسمية محلها وهي اتفاقات عقدها مالكو الاراضي أو وكلائهم حرم فيها بيع أو تأجير الشقق والعقارات للسود في مناطق سكن البيض وهكذا اضطر مئات الألوف من الزنوج الى السكن في احياء خاصة ومخصصة لهم واليوم لا نجد مدينة أمريكية واحدة لا تضم مثل هذه الأحياء (الغيتوات).

وفي ظل فوضى الانتاج الرأسمالي أدى نمو المراكز الصناعية في الولايات المتحدة الى نمو مدن كبيرة تكون عادة نواة لما عرف بالمناطق السكنية ويحيط هذه النواة عدد

من المدن التوابع. كما أدى الفرق في أسعار الأرض وتلوث الجو في المدن الكبيرة والضوضاء وزيادة كثافة السكان وصعوبة النقل الى هجرة البيض الى الضواحي وهو أمر لا يستطيعه السكان السود ليس بسبب الصعوبة المادية فقط وانما للتمييز العنصري في أماكن الاسكان أيضاً. فهكذا تضاعف السكان السود في الفترة بين ١٩٠٠-١٩٦٠ ثلاث مرات في المدن الرئيسية إلا أن هذا لم يؤدي الى اندماجهم وبسبب كونهم مسلوبي حرية الاختيار فهم مضطرون الى السكن في (مناطقهم) ولهذا تتكاثر وتتسع (الاحياء الزنجية) وتبتعد أكثر وأكثر عن الأنقراض الذي كان من المفترض أن يحدث اندماج لو حدث من ذلك فهذه الأحياء المزدحمة والموبوءة بمختلف الأمراض والتي تشكو الفقر والبطالة اصبحت المسرح الرئيسي لما عرف بالفتن العنصرية.

أدى تحول السكان السود الى بروليتاريا سوداء وظهور الأحياء السوداء الى احداث تغيير جذري في المحتوى الاجتماعي (للمسألة السوداء في الولايات المتحدة). اذ طالما بقي السود في الجنوب ظلت مسألتهم الرئيسية مسألة زراعية وظل استغلالهم أولاً كعبيد ثم كمحاصصين وبعد ذلك كعمال زراعيين ولكن في أيامنا هذه تقوم طبقة العمال السود المتنامية بتأدية الدور الذي كان يلعبه السكان الريفيون المسحوقون الذين يكدحون ليلهم ونهارهم ويعتاشون على الفتات والمشاكل الأساسية التي تواجه العمال السود وهي البطالة وشروط العمل والأجور والسكن وغيرها هي بالحقيقة نفس المشاكل التي تثقل كاهل الطبقة العاملة باجمعها ولذلك أصبحت (المسألة السوداء) جزء متمم لكل المشاكل الاجتماعية الرئيسية في الولايات المتحدة.



مقاطعة الباصات

بشرت المقاطعة الجماعية لباصات الادارة المحلية في مدينة مونتغمري التي حدثت في كانون الأول ديسمبر ١٩٥٥ وكانون الثاني يناير ١٩٥٦ بمرحلة عنيفة في الحركة السوداء فلا ضغوط السلطات البلدية ولا ارهاب العنصريين الذين نسفوا كنائس السود استطاع اضعاف المساهمة في الاضراب وانما ازدادت من تحرك السود في الجنوب بأكمله وفي تلك الأثناء فقط سمع العالم باسم الراهب «مارتن لوثر كنك» أحد قادة الحركة وفي السنوات التي تلت عام ١٩٥٦ برزت روح نضالية ظهر تحرك جماعي، وفي نهاية الخمسينات وبداية الستينات، ظهرت منظمات جماهيرية سوداء جديدة كما ظهرت أشكال جديدة من الصراع وتقديراً للوضع القائم في الولايات المتحدة والحاجة الى دعم البيض قام «مارتن لوثر كنك» وغيره من القادة الزنوج بالمقاومة السلمية التي أخذت شكل التظاهرات والاضرابات ومسيرات الحرية وغيرها من الأساليب واتسعت الحدود الجغرافية للحركة وازداد عدد المشاركين فيها. كذلك ازدادت الندوات والمظاهرات والمسيرات التي تطالب بوضع قانون جديد للحقوق المدنية ففي آب اغسطس ١٩٦٣ اشترك أكثر من ربع مليون شخص بين أبيض وأسود في مسيرة اتجهت نحو واشنطن تطالب بقانون جديد للحقوق المدنية.

هذه المسيرات والاضطرابات والمظاهرات هي التي ساعدت على تحريك جماهير الزنوج في الولايات الجنوبية وايقظت مشاعرهم السياسية وزرعت في قلوبهم الجرأة التي كانوا يحتاجوها للقضاء على التقاليد العنصرية وللمحافظة على جماهيرهم صلبة في مواجهة الارهاب البوليسي.

وفي غمرة هذا الصراع وجدت الجماهير السوداء قوة جديدة واحساس جديد بالكرامة وان باستطاعتها التغلب على كل المصاعب والعقبات ومن الصعب على أحد أن ينكر تحركات الجماهير الزنجية هي التي أجبرت الحكام الأمريكان على

التراجع ففي عام ١٩٦٤ وافق الكونغرس على قانون يمنع التمييز في العمل والثقافة ثم قانون عام ١٩٦٥ الذي وسع حق الاقتراع للزنوج في الجنوب.

منذ أواسط الستينات وبالأخص في النصف الثاني منها انتقل مركز الحركة السوداء تدريجياً من الجنوب الى مدن الشمال حيث يعيش نصف عدد السكان السود وازدادت الجماهير التي اشتركت في النضال هذه الجماهير التي تسكن الاحياء الزنجية والتي تطالب بحلول لمشاكلها اليومية وهكذا فالحركة التي عبرت أولاً عن رفض الطبقة الوسطى والطلاب الزنوج في الجنوب للتمييز في المدارس وفي النقل بدأت باتخاذ طابع الصراع من أجل حق العمل وحق الأجر المتساوي ومن أجل ظروف سكن أفضل وضد العزل في الاحياء الحقيرة. وهكذا وضعت ضمن المطالب الزنجية على أن النضال سيزيد من مقاومة ليس الرأسماليين فحسب ولكن أيضاً أقساماً من البرجوازية الصغيرة بالاضافة الى مجموعات مملوءة بالتعصب العرقي. وذكر محذراً:

«كلما سرنا الى الامام في سبيل إحداث تغيير جذري وحقيقي لحياتنا فسنواجه معارضة أكثر حدة حتى من تلك الفئات التي كانت سابقاً ترحب باحداث بعض التغييرات ولا يمكن تحاشي الصدام ذلك لأننا وصلنا الى مرحلة تتطلب احداث تغييرات حادة في اسلوب حياة أجزاء من الأكثرية البيضاء حتى يتم تحقيق المساواة».

وذكر «وليم فوستر» في كتابه (الشعب الزنجي في التاريخ الامريكي):

ان الطبقات الحاكمة نشرت التعالي الطبقي وغذت وزرعت الروح العنصرية لمدة طويلة بحيث أنها اثرت على لغتنا الوطنية وعلى عاداتنا وعلى تقاليدنا وابتلت اجزاء كبيرة من الطبقة العاملة بفيض من القذارات الثقافية التي انصبت عليها فالشوفينية البيضاء نتجت عن الخوف من فقدان المهنة وهو الخوف الذي أدى الى عدم السماح للسود بالقيام بالأعمال الماهرة وبالانضمام للنقابات.

بعثت قوانين الحقوق المدنية لعامي ١٩٦٤-١٩٦٥ الأمل بين الأمريكان السود وأعطت للشعب الأسود في الجنوب حق الاقتراع وحق الترشيح في بعض الحالات إلا أن شيئاً لم يحدث لتغيير حياة سكان الأحياء الحقيرة سواء في الشمال أو الغرب وانما ساءت أوضاعهم وازدادت مرارتهم وازداد تراكم الصراع في الأحياء الحقيرة

للمدن الكبيرة وقل فائدة تاكتيكات النضال السلمي واختلفت طبيعة القضايا التي تطرحها حركة السود.

فالشباب الأسود في الاحياء الزنجية الحقيرة وهم محرومون وجياع وبلا عمل ولا أمل توّاقون للاشتراك في المعارك للحصول على نتائج آنية.

وحدث الانفجار الأول في صيف ١٩٦٤ في (حي هارلم) بعد أن قتل شرطي طالب مدرسة ومن نيويورك انتقلت الشرارة لتشعل كل الأحياء الزنجية في المدن المجاورة. ثم جاء صيف ١٩٦٥ حيث هز الولايات المتحدة انفجار الحي الزنجي في لوس انجلوس.

ومرة أخرى فقسوة الشرطة كانت هي السبب في تفجير برميل البارود حيث اصطدمت الشرطة والعنصريون بالزنوج في ٣٨ مدينة أمريكية ووصلت الصدامات الذروة في عام ١٩٦٧ حيث حدثت ثمانون (فتنة) عنصرية مقابل عشرون عام ١٩٦٦ وخمسة عام ١٩٦٥ واستخدمت فرقة مظلات عسكرية لتهدئة مدينة ديترويت الثائرة.

وبضغط من الرأي العام اضطر الرئيس جونسون الى تشكيل لجنة استشارات وطنية حول الاضطرابات المدنية وهي اللجنة التي ذكرت في تقريرها أن الأسباب تكمن في التمييز العنصري الذي أصبح أحد أشكال الحياة التي لا يمكن التغاضي عنها وكذلك في الفقر وفقدان حق الاقتراع بالنسبة للزنوج.

في الرابع من نيسان ابريل ١٩٦٨ اغتال عنصري أبيض في مدينة ممفيس الزعيم الزنجي «مارتن لوثركنك» فأشعل ثورة سوداء شملت ١٥٣ مدينة أمريكية واستمرت من ٥-١١ نيسان ابريل استخدمت السلطات الامريكية للقضاء عليها مئة ألف شرطي وجندي بالاضافة الى قطعات عسكرية محمولة جواً واعتقلت ٢٧ ألف شخص بعد أن قتلت ٤٣ وجرحت /٣٥٠٠/ آخرين. أجبرت هذه الموجة المشرعين الامريكان على تبني قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٨ وهو القانون الذي يلغي التمييز العنصري والبيع والشراء وايجار المساكن ولكن هذا القانون لم يؤدي إلا الى تغيير طفيف في حالة المجتمع الأسود.

وفي عام ١٩٦٩ شملت عمليات السود حوالي ٩٠ مدينة في طول البلاد وعرضها وفي عام ١٩٧٠ شملت عمليات السود مئة مدينة وكما في السنوات السابقة فنار الاضطرابات هذه اشتعلت بسبب قيام الشرطة بقتل الزنوج في الأحياء

الزنجية أو اغتيال العنصريين البيض للقادة الزنوج أو للنشطين منهم ولم تستخدم (قوى الامن والنظام) الغازات المسيلة للدموع والمسدسات والبنادق فقط وانما استخدمت السيارات المصفحة والدبابات وطائرات الهليكوبتر.

ومن جانبها تحاول ماكنة الدعاية الرجعية أن تخلق أمام الرجل الأبيض شعور بما تسميه (الخطر الأسود) وذلك لدفعه لمعاداة السود والقاء اللوم عليهم لتردي العلاقات بين الجنسين وكذلك لتبرير السحق البربري للشعب الاسود واستهلت مشاعر الغضب العنيف التي تملأ قلوب السود لاثارة هستيرية شوفينيه بيضاء معادية للسود. وازدادت الحناجر العنصرية في الكونغرس وزادت جمعية الكوكلس وجمعية جون بيرش وغيرها.. الخ من المنظمات العنصرية من نشاطاتها التي عرفت باسم (المسيرة الانتحارية للبيض). وحول هذه (المسيرة الانتحارية) يقول هـ.ونستي:

«انها وصفة يقصد بها أن تكون خنجراً في قلب النصال الديمقراطي وهي سلاح ضد النقابات.. سلاح بيد الرجعية والفاشية في الولايات المتحدة».



الفهود السود

تأسس حزب الفهود السود في خريف عام ١٩٦٦ في أوكلاند بكاليفورنيا من قبل طلاب الجامعة المحلية بهدف مقاومة الشرطة التي كانت تقوم بحملاتها الارهابية ضد الاحياء الزنجية وسرعان ما أصبح للحزب ٣٣ فرعاً منتشراً في الولايات المتحدة ولشعور السلطات بزيادة تأثير هذا الحزب المتنامي بدأت بتنظيم الضغوط ضده وقامت الشرطة والمخابرات ورجال التحري بمجابهة مقرات الحزب المحلية واعتقلت وقتلت من كان موجوداً داخل هذه المقرات، واغتالت ما يزيد عن ٣٠ قائداً وعضواً نشيطاً في الحزب، فالقوى التي آلت على نفسها أن تضع السكان البيض بمواجهة السود وأن تضع النقابات لمواجهة حركة الزنوج هي نفسها التي تريد أن تبرهن على أن ليس للسود مصلحة مشتركة تجمعهم متلاعبة في ذلك على التناقض القائم بين البرجوازية السوداء الصغيرة نسبية وبين الفقراء سكان (الأحياء الزنجية) والمسألة هي أنه رغم النجاحات التي أحرزتها حركة السود في الستينات فانها لم تكن متحدة فمساهمة طبقات اجتماعية مختلفة أدت إلى حدوث اختلاف في الاهداف وفي التاكتيكات وفي أساليب النضال وفي تماسك القيادات.

والحركة الجماهيرية التي تعكس صراع الزنوج من أجل حريتهم تستمر بعدة أشكال وعلى عدة مستويات وما النجاحات التي حققها الأمريكان السود في الانتخابات البلدية إلا أحد أوجه هذه النشاطات. إلاأن حركة الزنوج كالعديد من حركات التحرر الأخرى في مناطق العالم كانت نفس المعاناة التي عانتها وتعانيها تلك الحركات فمن جهة نجد المحافظين الذين يريدون الحلول الوسط ومن جهة أخرى نجد الوصفات الراديكالية المتطرفة التي أدت الى حدوث التباسات عديدة.

الا أن هنالك اتجاهان ازداد وضوحهما وهما يعكسان الاختلافات في كيفية حل (المسألة الزنجية) أحد هذين الاتجاهين هو الاتجاه الانفصالي والآخر الاتجاه التكاملي.

يمثل الاتجاه التكاملي التيار الرئيسي في الحركة السوداء التي تهدف الى تكامل المجتمع الأسود مع كل السكان في الولايات المتحدة ويكون هذا التكامل اقتصادياً

وسياسياً وثقافياً وعلى أساس من المساواة الكاملة للجميع. تقود هذا الاتجاه خمس منظمات كبيرة: الرابطة الوطنية لتقدم الملونين التي أسست عام ١٩٠٩ من قبل روي ولكنس (في عام ١٩٧٠ كان لديها ١٧٥٠ فرع في الولايات المتحدة بعضوية مجموعها ٤٦٢ ألف عضو) والجامعة الوطنية المدنية التي تأسست عام ١٩١٠ ومؤتمر المساواة العنصرية المؤسس عام ١٩٤٢ ومؤتمر قيادة المسيحيين الجنوبيين الذي عقده مارتن لوثر كنك عام ١٩٥٧ ولجنة تنسيق اللاعنف الطلابية التي تأسست عام ١٩٦٠ وبخلاف المنظمتين الأوليتين اللتين تؤمنان بالتدرج فالمنظمات الثلاث الأخرى قد طورت أساليب نضالية جديدة في المقاومة السلمية النشيطة.

عند تحول أساليب الصراع الأساسية من الجنوب الى الأحياء الشمالية والغربية أخذ قادة مؤتمر المساواة العنصرية وقادة لجنة تنسيق اللاعنف الطلابية بتغيير آراءهم. ففي عام ١٩٦٦ طرح شعار السلطة للزنوج الذي انتشر كانتشار النار في الهشيم في طول البلاد وعرضها واستقبلته الجماهير بحماس وهنا عملت الصحافة البرجوازية المستحيل لصبغ هذا الشعار بصبغة (العنصرية السوداء) ولاثارة رجل الشارع الابيض ولخلق شعور معادي للسود ولشق حركة الحقوق المدنية بخلق الصدامات بين أطرافها المختلفة ومن الجهة الأخرى فالانفصاليون الزنوج حاولوا استغلال هذا الشعار كدعوة لحركة تعمد الى فصل السود عن البيض وترفض التعاون معهم الى شن حرب عصابات في مدن الولايات المتحدة.

إلا أن أحداث السنوات الأخيرة أدت إلى أن تتضح أمام ممثلي حركة الزنوج أن شعاراتهم ومناهجهم لا تتجاوب مع الظروف الموضوعية الجديدة، وأصبحوا متأكدين من أن نضالهم مرتبط بالأحداث الجارية في بقية أجزاء العالم.

وفي خلال مسيرة حزب الفهود السود ازداد اقتناع قلدته بأن الرأسمالية هي أم الداء وليس السكان البيض وأن الحاجة تدعو الى تحالف العمال السود والبيض من أجل القضاء على النظام السيء في الولايات المتحدة. وفي المؤتمر الذي عقده الفهود السود في خريف عام ١٩٧٠ وحضره /٦٠٠٠/ شخص يمثلون منظمات الحزب بالاضافة الى عدد من المدعوين كان نصف عدد الحاضرين من البيض وفي هذا المؤتمر رفع شعار (السلطة للشعب) وفيه أقر مبدأ اشراف الجماهير على الانتاج والثقافة والعدل والضمان الاجتماعي وفي قرار المؤتمر تتضح الدعوة الى العمل المشترك من أجل ايقاف الحرب الامريكية ضد شعوب الهند الصينية.

الفصل الثالث

تطور الجريمة في المجتمع الغربي

● لم أكن أريد قتله..
فقط أردت أن أخيفه.

المجرم الصغير

دماء على جدران المدارس

□ □ العالم الغربي الجديد المندفع بسرعة مذهلة الى حد «التدمير الذاتي» عبر الاحتكام الى العنف في أوساط الشباب واقتناء السلاح كأحد مظاهر الرجولة وكوسيلة بديلة للحصول على الهدف أياً كان مشروعاً أم غير مشروع.

وأمام ذلك تجتاح المدارس الغربية أحداث عنف فجرت نقاشاً واسعاً لدى قطاعات عديدة وأثارت تحليلات علماء التربية والنفس والاجتماع فضلاً عن رجال الشرطة الذين اكدوا تجاوز الظاهرة لحدودها الجنائية المباشرة وشمولها لواقع المجتمع بمختلف مؤسساته ورموزه وأزماته التي تترك آثارها وظلالها على النشيء وفي ساحات المدارس مما حدا بالعديد من المدارس لتركيب بوابات الكترونية يمر عبرها التلاميذ قبل الدخول لاكتشاف أي أجسام صلبة أو أسلحة. وهكذا مع مرور الوقت يجري عسكرة المنشآت التعليمية في العالم الغربي الجديد.

■ المدارس الاميركية:

□ □ تظهر احصائيات وزارة العدل الاميركية ان ١٠٠ ألف من بين ٤٥ مليون تلميذ وطالب أميركي يحضرون معهم سلاحاً داخل المدارس. الخطير في الامر ان ١٦٠ ألف تلميذ يتغيبون عن المدرسة لتعرضهم للابتزاز مما يثير في نفوسهم الخوف ولجأت مدارس كثيرة لمواجهة الظاهرة الى تركيب بوابات الكترونية لكشف السلاح والأجسام المعدنية للحيلولة دون وقوع الجريمة داخل جدران المدرسة أو لتقليل معدلاتها الى الحد الأدنى الممكن.

□ □ لجنة من خبراء التربية ذكرت ان المائة ألف يحضرون الى المدارس ومعهم آلات حادة أو مسدسات، وان ٩٠٪ من السلاح يجلبه التلاميذ من داخل منزل الاسرة. ووفقاً لدراسات اتحاد علماء النفس التربويين، فإن ٩٠٠ مدرس أميركي يتعرضون كل ساعة من ساعات اليوم الدراسي الى التهديد على يد

الطلبة والتلاميذ وذلك في المعدلات المتوسطة. اضافة إلى ذلك هناك ٥٢٠٠ مدرس يتعرضون لاعتداء كل شهر.

- ☐ ☐ حالة العسكرة التي تعيشها مدارس كثيرة خاصة في الاحياء الفقيرة دفعت المسؤولين الى التفكير بعقلية أمنية لحل جزء هام من المشكلة وهو ما يطلق عليه «نزع السلاح» المدارس المشبوهة والمعروفة في ولايات معينة. تأتي نيويورك - بطبيعة الحال - ضمن القائمة السوداء ويعرف عنها وجود المدارس الأكثر عنفاً في الولايات المتحدة. ومن الأمور الطريفة التي تثير الضحك والحيرة في آن ان هذه المدارس تحولت الى ما يشبه الدوائر الجمركية في المطارات نظراً لأنها مزودة ببوابات الكترونية. هناك أيضاً حرس بالزي الرسمي لاقرار الأمن واعادته الى المدارس الخارجة على حظيرة الامن والنظام وكذلك الاخلاق. يقوم هؤلاء بتفتيش التلاميذ قبل دخول المدرسة الى جانب مرورهم عبر البوابة الالكترونية وكأنهم في الطريق إلى منشأة عسكرية.

■ شواهد إجرامية:

- ☐ ☐ لم يقتصر الامر على المدن الكبرى، بل وصل أيضاً الى الريف. ففي كانون الثاني - يناير ١٩٩٣ حدث ان أطلق تلميذ (١٧ سنة) بمدرسة تقع في ضيعة تابعة لمنطقة جرايسون في كنتالي النار على مدرس اللغة الانكليزية اثناء الحصة ثم توجه الى مدير المدرسة ليقتله هو الآخر، شهد نفس الشهر جريمة اخرى قام بها تلميذ في ناحية انتيوتش التابعة لكاليفورنيا، حينما طعن أحد رفاقه بالخنجر. وفي ولاية أوهايو تم ضبط تلميذين عمرهما ١٢ و١٣ سنة قبل أن يتما خطتهما لقتل استاذ اللغة الانكليزية لمعاقبته على قسوته. في احدى القرى بتكساس التي لا يتعدى عدد سكانها الالف وثمانمائة نسمة قتل رئيس فريق كرة القدم بكافتيريا المدرسة القروية على يد زميل له اتهمه بأنه وجه اليه السباب.

■ المدارس الفرنسية:

- ☐ ☐ وفي فرنسا تمتد الدماء ايضاً على جدران المدارس، ومن ضحايا مسلسل العنف في فرنسا الطالبان كريستوف (١٣ عاماً) وديفيد (١٦ عاماً) في الحادث الأول يحمل القاتل والقتيل نفس الاسم (كريستوف). لم يجمع

بينهما فقط الاسم فكلاهما في الصف الدراسي الخامس ويعيشان في نفس الحي في مدينة (شالوسور ساون) وفرقت بينهما المدراس بعدما التحق كل منهما بمدرسة مختلفة. تقع المدرستان في حي يعيش فيه نحو ألف شخص. مثل سائر الأحياء في المدن الصغيرة البعيدة عن باريس والمدن الأخرى ينخفض مستوى المعيشة وترتفع معدلات البطالة ويتفاقم حدة المشكلة الاجتماعية التي تتجسد في التفسخ الاسري وضعف الرقابة على الابناء الذين تنتشر المخدرات في اوساطهم.. وفي مثل هذه المدن التي تحظى باهتمام أقل، يصبح من المشاهد المألوفة أمام عمال النظافة كم (الحُقن) الفارغة والملقاة في الطرقات بعد تناول جرعات المخدرات السائلة وتفتح الطريق بالتالي امام احتمالات الاصابة بالايدز ذلك المرض الفتاك الذي يمسك بخناق فرنسا.

□ □ (سباستيان) صديق للقاتل والقتيل يتقدم بروايته عن خلفيات الحادث يقول:

«لم أرَ القتيل منذ فترة طويلة. كان لا يحب أن يلعب القاتل مع مجموعتنا. سمعت ان القاتل تلفظ بألفاظ تنال من والد القتيل. ثار الأخير عندما عرف بذلك وأراد مهاجمة القاتل الذي يصغره حجماً، فما كان منه إلا أن أخرج سكيناً وطعنه في عنقه واستله بسرعة ليندفع دم الضحية على طريق الموت...

وصل رجال الشرطة مسرعين لكن كريستوف كان قد فارق الحياة». بطبيعة الحال فإن الموقف وخطورته أكبر من ادراك كريستوف القاتل. أخذته الصدمة وبكى قائلاً:

«لم اكن اريد قتله. أردت فقط أن أخيفه».

□ □ الغريب في الأمر، المشاعر الأقرب الى اللامبالاة التي انتابت أصدقاء الطرفين وكأن ما حدث أمر عادي يمكن أن يتكرر دون أن يثير حالة من الفزع. أحد الآباء القاطنين في الحي لم يستغرب وقوع الجريمة معللاً ذلك بانتشار الاجواء الاجرامية التي تتفشى في أوساط تعاني البطالة والفقر. يقول الرجل:

«رغم مرضي أتعرض لسرقة الامتعة من سيارتي دون أن اكتشف الفاعل».

رجل آخر يروي كيف عثرت الشرطة على ثلاثمائة دراجة بخارية مسروقة مخبأة داخل أقبية البنايات.



■ ثورة الطلبة:

□ □ الحادث الثاني راح ضحيته ديفيد على يد زميله في المدرسة فريد. سادت الأوساط التعليمية حالة من الاستغراب الشديد حينما عرفوا أن القاتل اعتاد احضار مسدسه معه في المدرسة التي تقع على تلال حي كافال بلانش في مدينة برست. حاول المحللون متابعة جذور الجريمة مع البدايات الأولى لبناء المدرسة عام ١٩٧٧ م. توقفوا عند المناخ التعليمي الذي اجتاح فرنسا والكثير من دول العالم في عقد السبعينات منذ ما عرف بـ «ثورة الطلبة» في أيار ـ مايو عام ١٩٦٨م حيث اجتاحت الجامعات والمدارس الفرنسية اصضطرابات ضخمة تعترض على ما هو قائم من قيم ومفاهيم، الكثير من الأسماء اليهودية لمعت وقتها تحت شعارات ماركسية براقة واصل بعضها الانطلاق في الحياة العملية لاحقاً مع التخلي عن الطروحات النظرية وركنوا أخيراً إلى ربطات العنق والحياة الرغدة. كان من ثمار هذا الحدث الزلزال ان نشأت فكرة «مدارس بلا أسوار» وربما بلا سلطات محددة الملامح تباشر صلاحياتها التربوية بما هو معروف في لين وشدة. تنامى هذا التصور وتلك الرؤية في مدرسة اوليسيه «اميرال رونارش» أدى ذلك ـ في نظر الخبراء الى حالة التسيب في أوساط التلاميذ والطلاب الذين نشأوا في أحضان «المدرسة المفتوحة». كان أصدقاء فريد على علم بوجود المسدس معه داخل المدرسة ولم يعترض أو ينزعج احد. بدا الأمر وكأن الجميع يرددون الأغنية الفرنسية:

«كل انسان يفعل ما يحبه».

□ □ في الليسيه الذي يضم ١١٠٠ تلميذ لا يوجد أي رقيب على دخول فناء المدرسة فهي مباحة للجميع حتى لتجارة الحشيش أيضاً. وصف واقع المدرسة يأتي من داخل مجلسها الأكاديمي إذ يقول احدهم:

«إنها بلا تاريخ أو سجل سيء تقع في حي مليء بالفيلات يغمره الهدوء.

لم يحدث واسترعى انتباهنا أحداث عنف».

هذا هو ما ينطق به الرسميون، لكن الواقع وشهاداته يعطي أبعاداً اخرى يجدر التوقف عندها. ففي آخر يوم وقبل عطلة نهاية الأسبوع تقابل الاثنان

ديفيد وفريد في غرفة خلع الملابس الملحقة بالقاعة الرياضية للمدرسة. الأول فارع القامة طوله ١٩٤ سم ويهوى لعب كرة السلة التي عشقها بعد عام قضاه في اميركا. كان السبب الرئيسي لالتحاقه بهذه المدرسة انها تضم واحداً من أفضل فرق السلة. فريد شاب فرنسي من أصل جزائري يعيش في حي هادىء بمدينة برست ويعاني من واقع أسري غير مستقر حيث يضم البيت بالاضافة إليه شقيقتين وشقيقاً، وأمه الفرنسية القابعة بالسجن.

■ لحظة الجريمة:

وقعت الجريمة بعد انتهاء حصة الدراسة، تراشق الاثنان بالكلمات وانتهى الامر عند هذا الحد ولم ينقطع دابر الضغينة. التقيا بعد عدة ساعات عقب خروجهما لفترة استراحة منتصف النهار. كان ذلك عند محطة الحافلات عندما وقعت الواقعة وأطلق فريد النار على ديفيد الذي نقل بسرعة الى المستشفى لكن الوقت كان متأخرا.

فريد أطلق ساقيه للريح وجرى من موقع الحادث. عممت الشرطة أوصافه وألقي القبض عليه بعد وقت قصير، أثبتت سجلات الشرطة اتهامه في سرقات واعتداءات على عجائز وسطو، أثبتت السجلات أيضاً أن فريد أقلع عن هذا الطريق منذ بعض الوقت.

يتكرر نفس سيناريو كريستوف وينطلق من فم فريد نفس المعنى في الفاظ أخرى، «لم اتوقع اني سأقتله».

■ ملاحظات:

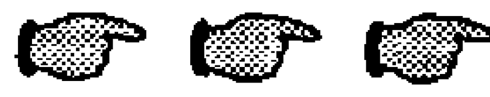
وهنا لا بد من ملاحظة «القانون الجنائي الفرنسي» الذي يقول:

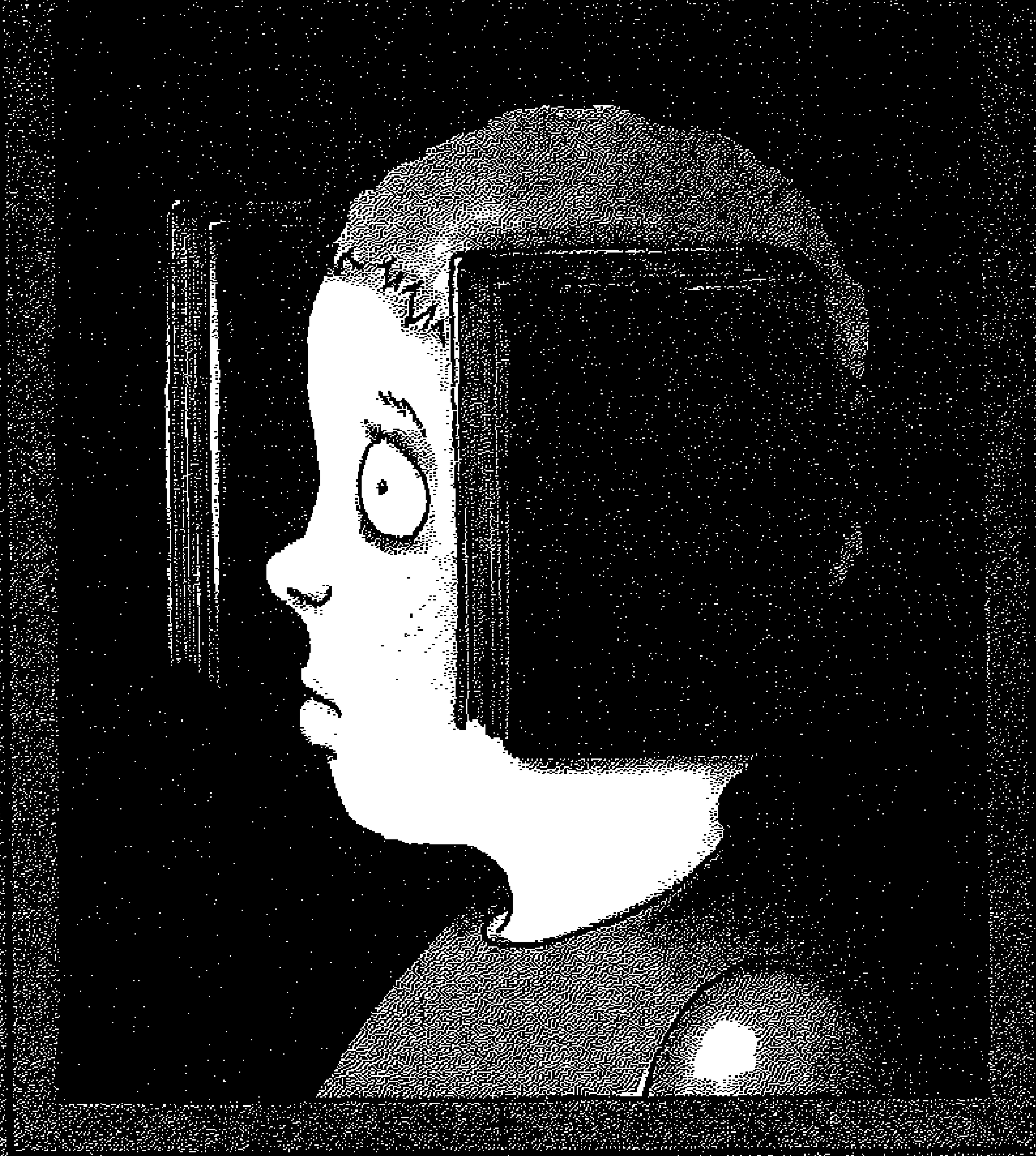
١ - لا يمكن بحال من الأحوال سجن من هم اقل من ثلاثة عشر عاماً.

٢ - الحدث الذي تخطى ثلاثة عشر عاماً يمكن عقابه بالسجن الموقت بحد أقصى مدته ستة شهور قابلة للتجديد مرة واحدة وتنطبق على الحدث حتى سن الـ ١٦

٣ - من السادسة عشرة حتى الثامنة عشرة يمكن ان يمتد السجن حتى سنتين مع تجديد مدته عاماً واحداً.

□ □ آخر الاحصاءات المرعبة كشفت وقوع ١٣ ألف حالة سرقة في المدارس عام ١٩٩٢ .ويرى المهتمون ان المدارس تحولت الى مصدر رئيسي يورد العنف الى المجتمع. تتنوع الجرائم بين سرقات وابتزاز فضلاً عن انحسار المستوى الاخلاقي عبر الشتائم والألفاظ النابية المتداولة وسط قطاعات كبيرة من التلاميذ. وصل الأمر الى حد الاعتداء على الاساتذة في بعض الحالات واغتصاب المفتيات. وهنا لا نغفل العين الرقيبة والواعية الأثر المدمر لافلام العنف الدرامية منها والكارتون على حد سواء. يسير معها بالتوازي احتكارات تجارية ضخمة تمجد رموز العنف مثل بعض الأزياء الخالصة والديكورات التي يقتنيها المراهقون والكبار في غرفهم والصور التي يزينون بها الجدران وتمثل حالة شحن مستمرة وبشكل لا شعوري لدوافع العنف المدمرة.. كما انها تساعد على تكوين شخصية غير سوية. ولا يمكن أيضاً إغفال تأثير المخدرات والكحول في السياق ذاته.





قاسي

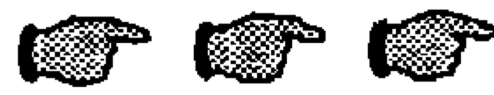
كمبيوتر يقود السيارات
بلا نوم وبدون مخاطر

□ □ المؤسسات العسكرية في الدول الغربية سعت منذ سنوات ليست قليلة الى انتاج مركبات عسكرية تسير بدون سائق حتى تتمكن من التسلل بدون خوف أو تردد إلى مناطق القتال لمتابعة قوات العدو.. وحتى سنوات قليلة مضت كانت محاولات انتاج مثل هذه المركبة تتركز على استخدام أجهزة كمبيوتر قوية جداً تستخدم معلومات عن الأشياء المحيطة بها عبر أجهزة استشعار حول المركبة وحينئذٍ تصدر أوامرها بالاتجاه الذي تسير فيه وكيف تتجنب العقبات، إلا أن تصميم البرامج الخاصة يمثل هذا النوع من الكمبيوتر يعتبر عملاً شاقاً للغاية، بمعنى ان واضعي البرامج يجب أن يتعاملوا مع كافة الاحتمالات الممكنة ـ على سبيل المثال كيفية التصرف في حالة ظهور طفل بشكل مفاجىء وعلى الطريق. إلا أن التقدم الكبير الذي طرأ على المنظومات المعروفة باسم «الشبكات العصبية» منح المصممين فرصة رائعة وطريقة جديدة لتصميم سيارات ركوب تسير بدون سائق، وبدلاً من ان يقوم المصممون لصياغة برامج كمبيوتر لكل نوع من الطرق والمخاطر المحتملة فإن الشبكات العصبية تتيح الفرصة لاجهزة الكمبيوتر لتعلم القيادة بنفس اسلوب قيادة البشر ـ ولكن بدون اخطاء ـ وقد تمكن العلماء في جامعة «كارينجي ميللون» بمدينة بيتسبرج ـ ولاية بنسلفانيا الاميركية ـ من تطوير مركبة عسكرية للجيش الاميركي اطلقوا عليها اسم «نافلاب ٢» استفادوا في صنعها بكل هذه التطورات العلمية الاخيرة.

□ □ أما السائق المنوط به قيادة هذه المركبة فهو «آلفين» وهو عبارة عن كمبيوتر تم تدريبه واعداده ليقود المركبة بسرعة قد تتجاوز ٥٥ ميلاً في الساعة الواحدة على الطرق العادية.. ومن المعروف انه خلال دروس تعلم قيادة السيارات فإن السائق البشري يتعلم كيف يسيطر على السيارة ويتحكم فيها، اما الكمبيوتر

(آلفين) فإنه يستقبل صوراً مبرمجة عن الطريق الذي سيسير فيه من خلال كاميرا فيديو موضوعة أعلى المركبة وفي نفس الوقت يتلقى الكمبيوتر تعليمات بالطريق الذي يسلكه السائق البشري، وبدلاً من اعداد برنامج مفصل له بالتعامل مع المواقف المختلفة، فإن (آلفين) حصل على قواعد تعلم ماهرة وبسيطة نسبياً تمكن «المخ الالي» به من ترجمة صور الفيديو التي يتلقاها من خلال الكاميرا الى اوامر بالطريق الذي يجب ان تسلكه المركبة.

□ □ وكأي سائق جديد فإن (آلفين) يرتكب أخطاء رغم ذلك، وتساعده قواعد التعلم على الاستفادة من تلك الاخطاء وتعديل استجاباته. ولا يزال العلماء المشرفون على انتاج هذه المركبة يبذلون جهوداً إضافية للتغلب على كافة العقبات المحتملة حتى يتمكن (آلفين) من العمل بضمانات سلامة نسبتها ١٠٠٪ على الأقل!!. ويؤكد الدكتور «ماريتال هيبرت» ـ أحد المشرفين على تصنيع الروبوت الجديد ـ ان استخدام الشبكات العصبية له ميزتان كبيرتان، الأولى أنك لا تحتاج إلى أجهزة كمبيوتر غاية في القوة حتى تمكن (آلفين) من العمل، إلا أن الميزة الثانية والأكبر هي أن (آلفين) يستطيع التعامل بكفاءة تامة مع مواقف لم يرها ولم يتعرض لها من قبل، فليس مطلوباً من المبرمج أن يحدد الملامح المهمة في الموقف فالشبكات العصبية تستطيع ان تفعل ذلك من تلقاء نفسها. وخلال التجارب التي أجريت على المركبة نجح (آلفين) في قيادة «نافلاب ٢» بسرعة ٥٥ ميلاً في الساعة لمسافة ٢٠ ميلاً على طريق من أربع حارات.. إلا أن المشكلة الكبرى التي يحاول العلماء التغلب عليها حالياً فهي خوف المركبة من الاشارات الاخرى المحيطة بها حيث قد تربكه اشارات السيارات الاخرى المندفعة. ويؤكد الدكتور هيربرت أن أمامهم عدة سنوات للتغلب على كافة هذه العقبات.



الفصل الخامس

المفكرون وتبرير الطغيان

● إن الأهالي هنا بالمعنى الحياتي هم أدنى مما نحن عليه

د. هـ. لورنس

الجريمة المنظمة
من وجهة نظر فكرية

● «يولد الكثير..
الكثير من الناس..
إنهم معلقون على أغصانهم أطول مما ينبغي..
وبودي لو أن عاصفة تأتي وتُسقط كل
هذا العفن ومأدبة الدود عن الشجرة.»

الفيلسوف نيتشه
في كتابه «زرادشت»

ـ ١ ـ

□ □ ان كُتّاب الحداثة في الدول الغربية أصحبوا يسعون الى حرمان الناس من قراءة أعمالهم، وإن ازدراءهم للجمهور العام، وشتائمهم له أصبحت تدريجياً تتناغم مع لهجة «هتلر» وبقية الزعماء العنصريين الذين كانوا حرباً على الجماهير عامة. يجيء هذا الرصد في كتاب صدر عن دار «فيبر أندفيير» البريطانية تحت عنوان «المثقفون والعامة» للكاتب البريطاني «جون كيري» اذ يقدم اطروحة مثيرة للجدل، هذه الأطروحة لاتبدو موضع جدل بالنسبة للمطلعين على مؤلفات كتاب الحداثة هؤلاء، ولكنها ستكون بمثابة صدمة بالنسبة لعامة القراء، وبخاصة الأقطار العربية الذين تغذوا على آثار هؤلاء ونسخوا قيمهم، ونقلوا نظراتهم في الحياة والناس، واحتقروا الجماهير الغفيرة وتعالوا عليها، وأعطوا بالتالي عدداً من الطغاة العرب (صدام حسين وقبله

الكثيرين.. الخ) مضمون خطاباتهم.. وتناغموا مع لهجتهم وصفقوا لفظائعهم. ان الكاتب العربي كالذي يصرخ في الخفاء أنه لايزال مشدوداً بين قطبين: قطب التعالي النيتشوي وقطب التواضع الانساني.

اذن فما الذي يقوله «نيتشه» الفيلسوف الألماني في كتابه «زرادشت» والذي محت الترجمة الرديئة مضمونه الحقيقي؟.

إنه يعلن بوضوح:

«.. يولد الكثير..

الكثير من الناس...

إنهم معلقون على أغصانهم أطول مما ينبغي..

وبودي لو أن عاصفة تأتي وتُسقط كل هذا العفن ومأدبة الدود عن الشجرة..».

ويقول في كتابه «ارادة متطلعة الى القوة»:

«إن اعلان الخاصة الحرب على العامة

حاجة مرغوبة».

ـ ٢ ـ

□ □ ويقول «جون كيري» في كتابه ان «نيتشه» في هجومه على البشر الزائرين أو غير الضروريين يمكن أن يتظر إليه بوصفه أحد النتاجات المبكرة لشيوع الثقافة بين العامة، ويمكن القول أن الثقافة العامة أخرجت «نيتشه» كنقيض ومناهض لها. إلا أن رؤيته هذه «للعامة» كانت رؤيةمشتركة بينه وبين معظم مؤسسي الثقافة الأوروبية الحديثة، وتشير شهرة أفكاره المتسعة بين منتفعي مطلع القرن العشرين الى مدى الذعر الذي أثاره فيهم تهديد العامة.

□ □ الشاعر الايرلندي «و.ب.يتيس» يقدم «نيتشه» لقرائه بوصفه «المناهض لانتشار الابتذال الديمقراطي». ويصف «برنارد شو» كتاب «هكذا تكلم زرادشت» هكذا:

«إنه أول كتاب حديث يستطيع أن يعلو على مزامير التوراة».

ويعرض «إبسن» في مسرحيته «عدو الشعب» في العام ١٨٨٢ م الفرد المعزول بوصفه حامل الحقيقة وضحية العامة الفاسدة. ما تتضمنه المقتطفات وما كان يشكل تياراً فكرياً، شيء يتجاوز مجرد التعالي والادعاء، فالنخبة الانكليزية عبرت عن خوفها وكراهيتها للعامة، واعتبرتها مفسدة و«ملوثة» بمصطلحات وتعابير لا يمكن تمييزها إلا نادراً عن الهجمات النازية على الشعوب الأخرى التي لا تنتمي للعنصر الجرماني.

ـ ٣ ـ

□ □ ويجادل «جون كيري» بأن عداء المثقفين هذا كان المسؤول المباشر عن ظهور الادب والفن الحديثين، وما تميزا به من السعي نحو استثناء القارىء العادي «مجسد ابتذالية الديمقراطية» من بين جملة المريدين حفاظاً على احساس المثقفين برفعتهم ومكانتهم الارستقراطية. لقد كان للتشريع البريطاني في سبعينات القرن التاسع عشر والخاص بالتعليم أهمية عظمى. فلأول مرة يدفع هذا التشريع الى حيز الوجود وجود «العامة» المتعلمة بأعداد كبيرة. وتم تنوير كل جوانب انتاج ونشر النصوص المطبوعة. ولاحظ «هـ.ج.ويلز»:

«إنه لم يحدث أبداً أن كان هناك هذا العدد الكبير من العامة القارئة.

إن الهوة الكبيرة التي قسمت العالم إلى قراء وعامة غير قارئة أصبحت لا تزيد إلا قليلاً عن اختلاف طفيف يمكن ادراكه في المستوى التعليمي».

ـ ٤ ـ

□ □ وظهرت الصحف الجماهيرية في أعقاب تشريع التعليم، من أجل تسلية الجمهور القارىء، في عام ١٨٩٦ أنشأ «الفرد هامورث» والذي سيصبح اللورد «نورثكليف» فيما بعد، صحيفة «ديلي ميل» بشعارها المعروف «صحيفة الرجل المشغول» وهو الشعار الذي جاء ضربة لفكرة النخبة المترفة. وأصر «نور ثكليف» على أن صحيفته معدة لتغطي وتتعاطى مع كل ما يهم الناس، وكان مبدأه الصحفي الجديد: «اعطاء الجماهير ما تريد».

وبدت هذه الشعارات والمبادىء الجديدة نذير شؤم بالنسبة للمثقفين: فهؤلاء يؤمنون باعطاء الجماهير ما يريده المثقفون. وهذا هو ما يعنونه بالتعليم والتثقيف بشكل عام.

في نفس هذا الوقت كانت معاداة الصحف منتشرة بين المثقفين الأوروبيين على نطاق واسع يكتب «نيتشه»:

«تتقيأ الغوغاء صفراوتها وتسميها صحيفة.

إننا نشعر بالاحتقار لكل انواع الثقافة التي تتسابق مع قراءة الصحف ناهيك عن الكتابة اليها..»

ويتوصل «ت.س. اليوت» في مسحه للمشهد الثقافي عبر مجلته «المعيار» (١٩٣٨م) الى أن تأثير الصحف اليومية والاسبوعية على قرائها يعزز لديهم الرضا عن ذواتهم والتحامل الجاهل الذي تتصف به عامة الناس. وقاد الناقد والحكم الثقافي «ف.ر.ليفز» حملة موسعة ضد الصحف والشر الملازم لها. أي الاعلان، على صفحات مجلة «الفاحص» وجاء في حملته أن وسائط الاعلام الجماهيرية: «تستحث أرخص الاستجابات العاطفية». وحذر من أن «الأفلام والصحف والنزعة الجماهيرية بكل أشكالها وروايات التسلية التجارية، توفر اكتفاء عند الحد الأدنى من الجهد الفكري». وانسجاماً مع حملته هذه لم يسع «ليفز» الى توسيع سوق صحيفته، ولم يطبع منها أكثر من «٧٥٠» عدداً لكل طبعة خلال الثلاثينات.

ـ ٥ ـ

□ ازدراء المثقفين للصحف لم يكن، وهو ما يجب أن نلاحظه مشتركاً بينهم وبين «شرلوك هولمز» الشخصية الروائية الكبيرة والمثقفة في تلك الفترة. ففي الوقت الذي كان فيه المثقفون مشغولين في ابتكار شخصية «شرلوك هولمز» كنسخة مريحة عن مثقف للاستهلاك الجماهيري، وتحديداً لأفراد الطبقة الوسطى ومن دونهم من قراء مجلة «ستراند» حيث نشرت معظم أقاصيص «هولمز».

«هولمز» بالطبع نتاج الثقافة الجماهيرية شأنه في ذلك شأن «نيتشه» ووظيفته هي تبديد الخوف من طغيان اللافردية واللا اسمية الذي تجلبه

جماهير المدن. ويمكن الخلاص من العبقري الذي يقدمه «هولمز» كبوليس سري في انقاذ الأفراد من الطغيان الجماهيري. والسمة العامة في بداية أي قصة من قصصه هو تفحصه للأشخاص المجهولين الذي يصلون الى غرفته. انه يلاحظ ملبسهم، وما اذا كانت أياديهم متصلبة، أو أن نعال أحذيتهم مستهلكة.. الخ ثم يحيرهم باعطائهم وصفاً دقيقاً لأعمالهم وعاداتهم واهتماماتهم الفردية قبل أن ينطقوا بأي كلمة.

ان جاذبية السحر «الهولمزية» وتعزيز الذات الذي تحدثه في نفس القراء تمتلك خاصية التأثير الديني، في افراد روح الفرد، أي جعلها متفردة، وتحريرها من الكتلة العامة، وهو نفس ما تعد به الديانة المسيحية.

والصحف هي احدى أعظم اهتمامات «هولمز» إنها مخزونه الكبير في معركته ضد الشر. أنه يحتفظ بملفات ضخمة تحتوي على قصاصات من الصحف. ويستخدم الأعمدة الصحفية الشخصية ليتصل بسائقي السيارات، والشهود الذين قد يساعدونه بالاجابة عن استفساراته.

إن تبني «شرلوك هولمز» للصحيفة كحليف وعلى الضد من رعب المثقفين من الصحافة المطبوعة، يشير الى مسار الشق الممتد الذي كان يقسم الثقافة الانكليزية. كانت الهوة مفتوحة:

«فعلى أحد الجانبين يشاهد المثقف الملايين العاملة والمبتذلة والتافهة تغرق في الصحافة المطبوعة، وعلى الجانب الآخر، حيث يقف، يشاهد نفسه وزملاءه بلا وظيفة، مهملين يقرأون «فرجينا وولف» ومجلة «المعيار» والتي وصل تداولها المحدود الى ٨٠٠ اشتراك في أفضل أيامها!!».

- ٦ -

□ □ مشهد انكلترا على هذين الجانبين المتضادين للهوة، كان أحد الموضوعات التي تناولها «ف.ر.ليفز» في كتابه الأول «مدنية العامة وحضارة القلة» المنشور في عام ١٩٣٠ م، وفي هذا الكتاب كتب «ليفز» مؤمناً:

«إن الحضارة تعيش أزمة غير مسبوقة في التاريخ» فقد جلبت وسائط الاعلام الجماهيرية: الراديو والفيلم وصحف اللورد نور ثكليف،

«الاطاحة بالمعايير» وحوصرت القلة القليلة المهيأة لتقديم تقرير مستبصر للادب والفن، والتي تعتمد على ممكنات الحياة الجميلة في أي زمن، وانقطعت، كما لم يحدث من قبل، عن القوى التي تحكم العالم».

ويلاحظ «ليفز» أن سلطة المرجعية اختفت وظهر الى حيز الوجود مصطلح جديد ينذر بالشؤم، إنه مصطلح «الرفيع الثقافة» بمعنى «المتحذلق» ليصف المتحدين من أمثاله:

«إن القلة بدأت تعي ليس عدم تناغمها مع البيئة فقط، بل ووجودها في بيئة معادية»!.

□ □ «العامة» لا يبدون مجرد «منحطين» و«مصدر تهديد» بالنسبة للشخص «الرفيع الثقافة» هذا حين يتطلع عبر الهوة، بل أنهم ليسوا أحياءً تماماً أيضاً، والتهمة الشائعة هي أن «العامة» يفتقرون الى الأرواح.

يكتب «توماس هاردي» من عام ١٨٨٧ م:

«يمكن أن تنظر الى حشد من الناس على اساس أنه يحتوي قلة معينة ذات أرواح حساسة. الحشد وما فيه من قلة هو الأمر الجدير بالملاحظة، ونتيجة لذلك يمكنك تقسيم الناس الى آليين بلا أرواح ذوي عقليات بدون مبادرات، والى آخرين أحياء ناشطين وأساسيين يعانون، أو بعبارة أخرى يمكنك تقسيم الناس الى آلات وأرواح أو طين وأثير..».

ويربط «ت.س. اليوت» في قصيدته «الارض اليباب» بين حشود العاملين في المكتب وهي تعبر جسر لندن وبين أموات «دانتي» في الجحيم:

«حشد يفيض على جسر لندن
حشد ضخم..
ما كنت أعرف أن الموت طوى أناساً
بهذه الكثرة».

□ □ وما تتضمنة هذه السطور هو أن حشود لندن ليست أناساً أحياء حقاً. وهذا ينسجم مع زعم «نيتشه» بأن ما يدعى الحياة في الدول الحديثة ليس إلا انتحاراً بطيئاً في الواقع. وأصبح الافتراض بأن معظم الناس موتى، وبشكل واسع بتأثيرات «اليوت» مقياساً لأعمال أي مثقف يحترم نفسه في الثلاثينات من القرن العشرين.

ويضمن «جورج أوريل» هذا المقياس بين مثقفين نموذجيين في كتابه «دع الزهرة طائرة» يقول أحدهما:

«قصائدي ميتة لأنني ميت..
أنت ميت..
كلنا أموات..
الناس موتى في عالم ميت..
هذه الحياة في ظل الرأسمالية المنخورة
مهلكة وبلا معنى..
انظر الى هذه البيوت البلهاء
والى البشر الفاقدين للمعنى بداخلها..
أحياناً أفكر
أن كلنا جثث تتعفن على سطح الأرض
فحسب!!»

- ٧ -

□ وتكتسب فكرة أن «حياة» عامة الناس لا يمكن تسميتها حياة بكل معنى الكلمة، جاذبية قوية لدى «د.هـ. لورنس» تلميذ ««نيتشه» الانكليزي الكبير الذي قرأ أعماله في مكتبة «جريدون» العامة لأول مرة عام ١٩٠٨ م. وأثر إحساس «نيتشه» المتأصل بتفوقه على عموم البشرية، وبخاصة غير البيض، بقوة على لورنس، كتب هذا الأخير إلى الليدي «سنثيا اسكوت» من «سيلان» مؤكداً لها:

«ان الاهالي هنا بالمعنى الحياتي
هم أدنى مما نحن عليه».

وعندما سافر الى «المكسيك» كان واضحاً بالنسبة له مرة أخرى أن ميزة طبيعية تسمو به فوق الأهالي. وألح في كتابته على أن أشكال الحياة الأعلى هي التي تحيا فعلاً، أما أشكال الحياة الأدنى فانها موجودة فحسب:

«زهرة الدنيداليين
مفعمة بالحياة

أكثر من ورقة خنشار خضراء
أو شجرة نخيل!!.
الأفعى مفعمة بالحياة
أكثر من تمساح.
أنا مفعمة بالحياة
أكثر من المكسيكي
الذي يسوق عربتي»!!.

□ □ وهكذا.. فاذا كانت غالبية الناس موتى سلفاً، فان ابادتها تصبح أسهل عملياً، لأن مثل هذه الابادة لن تتضمن أي فاجعة حقيقية. ونستطيع تتبع تطور هذه الفكرة في كتابات «لورنس» حيث نجد إبادة الجنس البشري فكرة تفتنه بوضوح وتأسر لبه. فيقترح على الليدي «اوثلاين موديل» في عام ١٩١٥ م وقد أفزعته الحرب:

«سيكون أمراً رائعاً
أن يرسل الله طوفاناً آخر يغرق العالم..»

ويتقبل في كتابه «فانتازيا الوعي» فكرة:

«ان البشر
يجب أن يتساقطوا صرعى بالملايين
في مراحل تاريخية معينة».

ولا يثير فزعه هذا الأمر أكثر مما يثيره:

«سقوط أوراق الشجر
في الخريف..»

ويشعر «لورنس» في نهاية بحثه في وضعية الانسان الحديث يميل الى تقديم:

«ثلاثة هتافات
تحية لمخترعي الغاز السام!!».

فهو يرى بأن كبار السن والمرضى والمعلولين يقدمون أنفسهم بأنفسهم:

«انهم ناضجون للاعدام».

ويؤكد «نيتشه» بأن الغالبية العظمى من البشر لا حق لها في الوجود:

«انها ليست إلا عقبات
في طريق البشر المتفوقين».

ويضع اللوم بسبب وجود هذه الأغلبية على فساد العروق الأوروبية:

«الذي جعلها تحافظ على المرضى والمعلولين».

□ □ ونجد أن منهج الابادة الفعلي قد ترك غامضاً لدى «نيتشه» وتلميذه «لورنس» إلا أن لدى «لورنس» قطعة تثير القشعريرة في البدن كتبها في رسالة عام ١٩٠٨ م يشرح فيها لـ «بلانش جنتكز» ما الذي سيفعله ليقتلع منبوذي المجتمع:

«لو كان الأمر بيدي لبنيت غرفة مهلكة كبيرة بحجم قصر من البللور، تقف إلى جانبها فرقة موسيقية عسكرية تعزف ألحاناً ناعمة وإلى جانبها شاشة سينمائية لامعة.. ثم أمضي الى الشوارع الخلفية والرئيسية».

وأجيء بهم الى داخل القصر، كل المرضى والمشوهين والضعاف. وأوقدهم بلطف. وسيشكرونني بابتسامات كالحة.. وسيتدفق كورس الفرقة بالغناء مهللاً بقدومهم..».

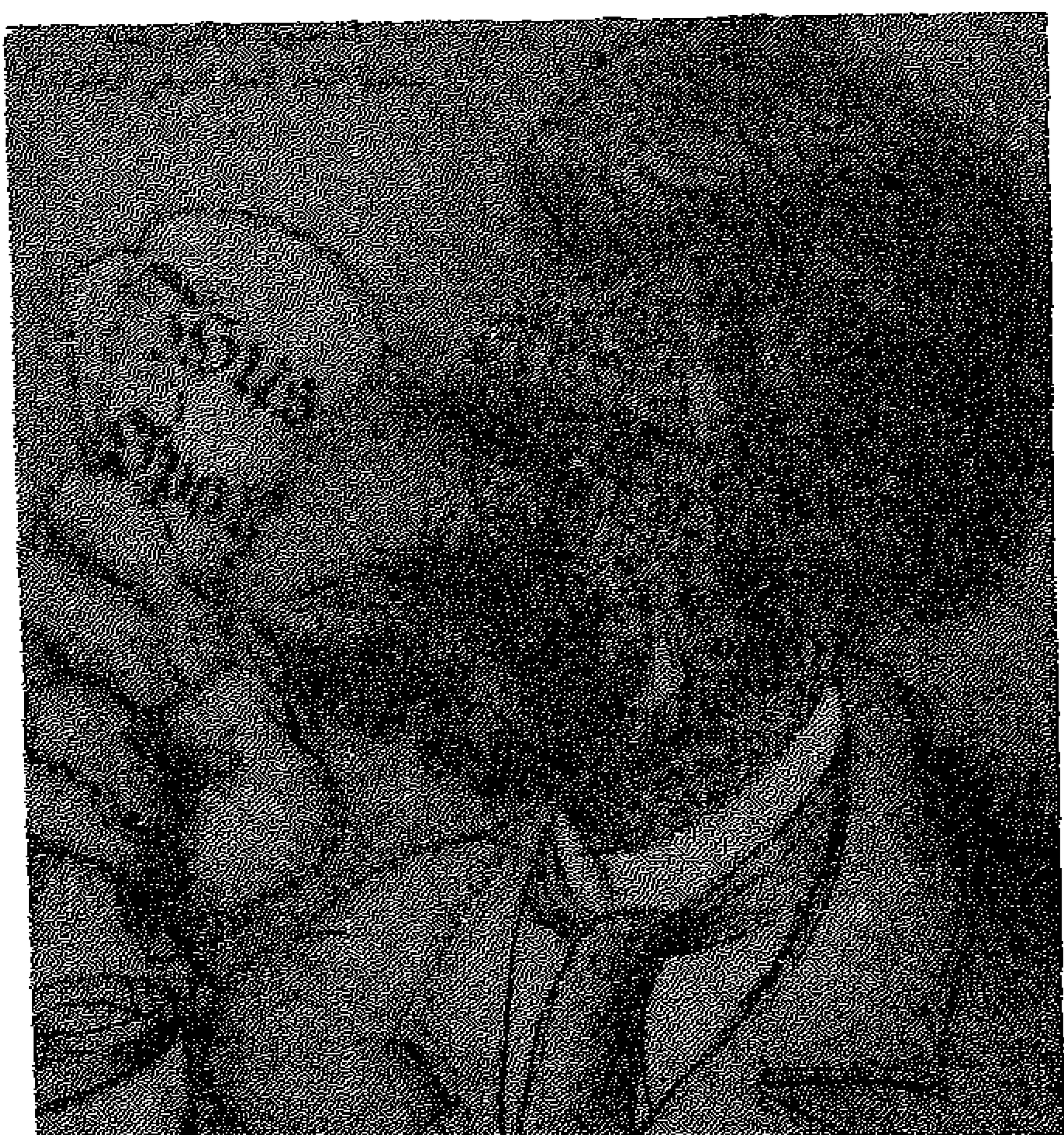
ولم يحدد «لورنس» في رسالته ماهية الشيء الآخر الذي يمكن أن يتدفق بنعومة كي يجعل غرفته الكبيرة مهلكة، ولكن اهتمامه بالغاز السام فيما بعد يعطينا إشارة إلى وجهة تخيلاته.

- ٨ -

□ □ ان المبادىء الشائعة التي جعلها الادب والثقافة الحديثين طرازاً كانت تسعى الى شطب «العامة» ودحر سلطتها وحرمانها من الابجدية والتنكر لانسانيتها. ويمكن القول أن ما فشلت هذه الحداثة الثقافية في الاعتراف به هو أن العامة غير موجودة. لأن العامة كناية عن غير القابل للمعرفة والخفي. فنحن لا نستطيع أن نرى «العامة». ان ما نراه هوالحشود ولكن «العامة» هي جانب ميتافيزيقي للحشد:

«جماع كل الحشود الممكنة
وهو ما لا يمكن تصوره إلا على شكل كناية أو مجاز».





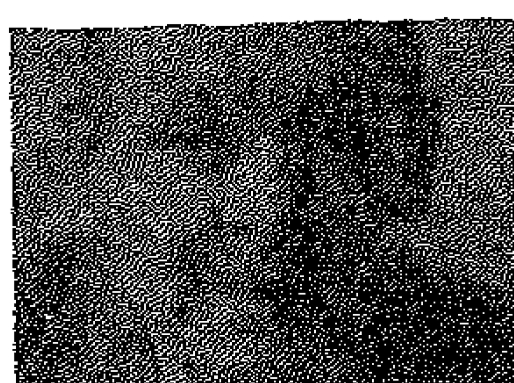


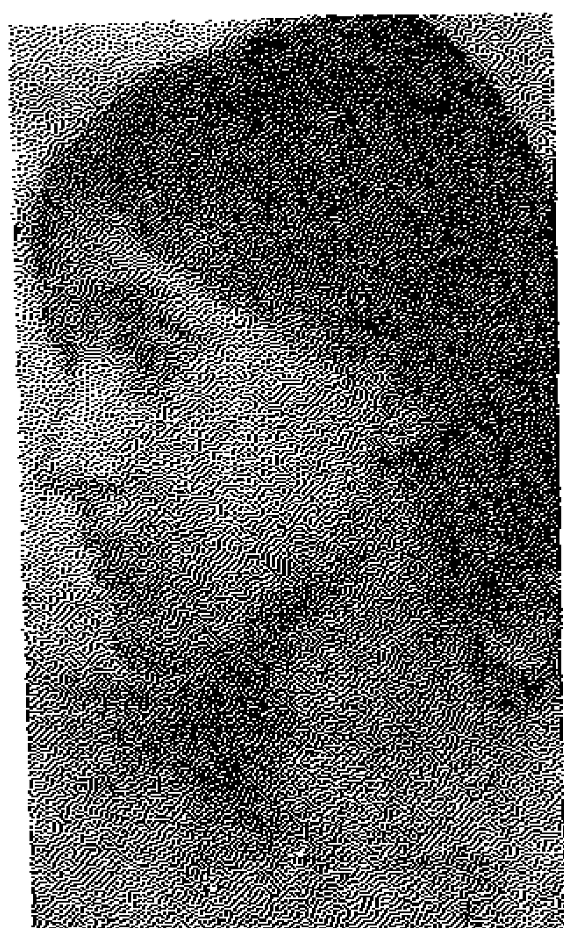


ای.ام. فورستر









ان مجاز «العامة» يخدم أغراض إثبات الذات بالنسبة للفرد لأنه يحول الاخرين الى خليط، انه ينكر عليهم الفردية التي ننسبها لأنفسنا وللناس الذين نعرفهم. ولكون العامة أساساً غير ممكنة المعرفة، فان تعريفها لا يتم إلا خلال صور مفروضة تنسب العامة الى أشياء أخرى. فبالاضافة الى نسبتها إلى الصحف، هناك النسبة المتواترة التي تثير الفضول: الطعام المعلب. ولم يقتصر كتاب الحداثة على استخدام هذه النسبة، «اي. ام. فورستر» يلصق ببطله، «ليونارد باست» من الطبقة الدنيا عادة أكل الطعام المعلب، ويشن النرويجي «نون هامس» حروباً متقطعة في رواياته ضد الطعام المعلب. ويكثر ظهور سمك السلمون المعلب في مطبخ الطبقات الدنيا كما تعرضها روايات «كراهام غرين».

الملفت للنظر أن كاتباً مضاداً لهذه الأنماط مثل «جيروم. ك. جيروم» يقلب الطاولة على الحداثة ويجعل «الطعام المعلب» موضوعاً لمشاهد أدبية فذة فتصفه احدى الصحف بأنه:

«نموذج ومثل على النتائج الحزينة التي يمكن توقعها من الجرعة الثقافية المفرطة للطبقات الدنيا»!.

ـ ٩ ـ

□ □ يقول الدكتور محمد الرميحي:

«في لحظة معينة من لحظات الاحتدام التاريخي تتحول الهموم العامة، سياسية كانت أو اجتماعية، الى هموم ثقافية. وعندما يتعلق الأمر بخصوصية البشر وكرامتهم وحريتهم فان هذا الهم العام يدخل في جوهر العملية الثقافية، فما الثقافة إلا كونها معارضة للقبح كشكل من أشكال مؤازرة الجمال، مؤازرة انسانية الانسان».

ولكن أين حقيقة هذه المقولة في العالم العربي والاسلامي؟

في العالم العربي والاسلامي بالذات، فإنه منذ بداية القرن العشرين ومع انهيار دولة الخلافة العثمانية، ثم قيام الدولة العبرية فيما بعد فوق أرض فلسطين، وباتت نظرية «المؤامرة» هي العنوان الرئيسي للتحولات الكبرى. وللحروب والانقلابات والتصفيات الجماعية والمطاردة اليومية والقهر والارهاب السافرين. فالمؤامرة على العرب أو القومية أو الهوية الوطنية والمذهبية أطلقت من عقالها قوى زعمت لنفسها

«الحق المطلق» في مواجهة «المتآمرين»، وسواء كانت هذه القوى داخل السلطة أو في خنادق المعارضة فإنها، انطلاقاً من قناعتها الكاملة بأنها وحدها تملك ناصية الحقيقة المطلقة، اعتمدت البطش والارهاب والتصفية الجسدية الوسيلة الوحيدة للحوار مع «المتآمرين»، باعتبارهم الشر المطلق، ولم يعد مصادفة، كما يؤكد الباحث حازم صاغية، أن يخرج من بين صفوف هذه الأمة قيادات تتولى أعلى مراكز السلطة، مثل صدام حسين، وكفاءتها الوحيدة هي أنها حاولت اغتيال عبد الكريم قاسم، كما انه ليس من المصادفة ان يزعم احدهم لنفسه دور «البطل الشعبي»، ومقياس هذه البطولة هو عدد العبوات الناسفة التي يزرعها لتدمير المجتمع المدني و«السلطة المتآمرة»، بينما تخرج بالمقابل أنظمة تقيس نجاحاتها بعدد المعارضين الذين تتم تصفيتهم في كل يوم على أيدي قواتها المسلحة.

هذا الحوار المدمر لثوابت المجتمع وقيمه المشتركة وعقله الجمعي يحمل بذور السقوط للجميع، ففي خضم الصراع الدامي يتم تغييب النهاية التي من أجلها يقوم الصراع الدامي، وتتحول الوسيلة الى غاية بحد ذاتها، وعندما تكون هذه الوسيلة هي القتل والتدمير فإن المجتمع كله يفقد عقله وتتساوى الهرطقة والايمان، العلم والخرافة، السحر، والمعرفة، وتتحول فيه الايديولوجيا الى مشروع قتل أو.. انتحار (!!) حروبنا في الداخل لم تتوقف، وهي لا تستخدم الكلمة بل الرصاصة التي تضن بها على «المؤامرة الكبرى».

واذا كان لكل مجتمع في الغرب مجانينه وهو قادر على الرقي والتطور والاستمرار معهم، فإن شرقنا يكاد يعكس الآية فيجعل لكل مجانين مجتمعهم الذي يبشرهم بالموت قتلاً أو انتحاراً.

- ١٠ -

□ □ الكاتب العربي العراقي رصد هذه الظاهرة، فقد أصدر عدة كتب باسم مستعار وهو سمير الخليل أما اسمه الحقيقي فهو كنعان مكية، وذلك عندما كتب في أواسط الثمانينات كتاب «جمهورية الخوف» أما كتابه الأخير فحمل اسم «القسوة والخوف» وقد حمل هذا الكتاب اسمه الحقيقي «كنعان مكية» حيث يجيء هذا الكتاب في جو عام أقل خطورة من السابق بالنسبة للمعارضين العراقيين المنفيين لا إرادياً أو ارادياً في الخارج. حيث قلمت، بعد

حرب تحرير الكويت، مخالب النظام العراقي وجهاز قمعه الذي يقوم بالتصفية الجسدية للمعارضين خارج العراق، وكنعان مكية أحدهم اذ أنه يعيش منفياً بين الولايات المتحدة وبريطانيا، وقد سبق وأن أصدر النظام العراقي حكماً بالاعدام ضده. ويعتبر كتاب «القسوة والصمت» وثيقة ليس لادانة ممارسات النظام العراقي ضد العراقيين فقط، فهي ممارسات يصفها الكاتب مباشرة نقلاً عن أولئك الناس الذين وقعت عليهم تلك الممارسات، ولكنها أيضاً وثيقة ادانة لمجموعة كبيرة من المثقفين العرب الذين إما وقفوا مع تلك المارسات بشكل أو بآخر أو على الأقل فشلوا في ادانتها إبان (اعجابهم المرضي) بالشخصية الدكتاتورية.

القسم الثاني من الكتاب والمكون من أربعة فصول يأتي على المواقف الايديولوجية والثقافية التي شكلت بوتقة القمع والقسوة في الحياة العربية، وموقف أو مواقف بعض المثقفين العرب الذين فجرت فيهم قضية احتلال الكويت المواقف المكبوتة. فالمثقف يفترض ويتوقع منه أنه يحمل ثقافة الخطاب النقدي، وليس الانسياق، كما أنه من المفروض ألا يكيل بمكيالين أحدهما مستوف لنفسه والآخر منقوص لغيره. ويذكرنا طرح كنعان مكية بخيانة المثقفين الذين يتخلون عن نداء الفكر وإعمال المبادىء، ويساومون عليها ويناصرون في العلن ما يسبونه ويحتقرونه في السر!!.

«كنعان مكية مثقف مستقل يقدم لنا رؤية مستقلة مرتبطة بمصالح أغلبية الشعب، ويأخذ على المثقفين العرب الذين صفقوا وما زال بعضهم يصفق للنظام العراقي الدكتاتوري، يأخذ عليهم أنهم لم يذوقوا، لاهم ولا ذووهم أو معارفهم، أشكال القمع التي ذاقها الشعب العراقي، كما يأخذ عليهم الابتعاد عن مناقشة المشكلات الحقيقية بالتستر وراء شعارات قد تكون براقة ولكنهاليست واقعية. كنعان يمثل المثقف الملتزم بشكل عضوي بهموم شعبه، ولو أنه يؤكد في ثنايا كتابه أنه يكتب لنفسه لا للغير، يكتب لأنه وجد قضية تستحق الدفاع عنها، كما أنه يكتب بصراحة، ماله وما عليه، ويأخذ الكاتب على معظم المثقفين العرب أنهم ينخرطون في «الكورس» ليقدموا المدائح. الطليعة المثقفة الواعية والناقدة تعتبر قيمة لا تقدر بثمن، إن هي قامت بواجبها تجاه مجتمعها. بعض الشرائح من هذه الطليعة التي هللت للطاغية صدام حسين انما هي مارست خيانة كبرى لنفسها ولشعبها،

فالتغاضي عن ارتكاب الجرائم الانسانية وتبرير تلك الجرائم بمبررات أيديولوجية وتاريخية عصبوية، فإن الجريمة عندئذٍ تكون أشد من جرم النظام الدكتاتوري نفسه.

- ١١ -

□ □ أن الادانة للمثقف العربي تكون أكبر عندما يكون بعيداً عن النظام الدكتاتوري خاصة أولئك المثقفين القادرين على أن يقولوا وجهة نظرهم دون خوف من حساب، أولئك الذين يعيشون في جو من حرية الرأي والكتابة.

لقد صمت بعض المثقفين العرب بشكل عام على سياسات النظام العراقي القمعية تجاه شعبه. وابتكر بعضهم خرافات عديدة ويافطات واهية وكانت هذه وجه العملة الآخر لصحتهم وتجاهلهم للحقائق الموضوعية، وكذلك التخلي عن دورهم الحقيقي، على أساس الموافقة الضمنية أو على أساس عدم فضح النفس أمام الغير، كل ذلك قاد الى كارثة سيظل العرب لفترة طويلة يعانون من آثارها. وان كان الاختلاف من حق الجميع في تفسير الاحداث، ان حقنا جميعاً ان نختلف حول ما هي الحقيقة، ولكن لا أحد يختلف حول ما هو القمع.



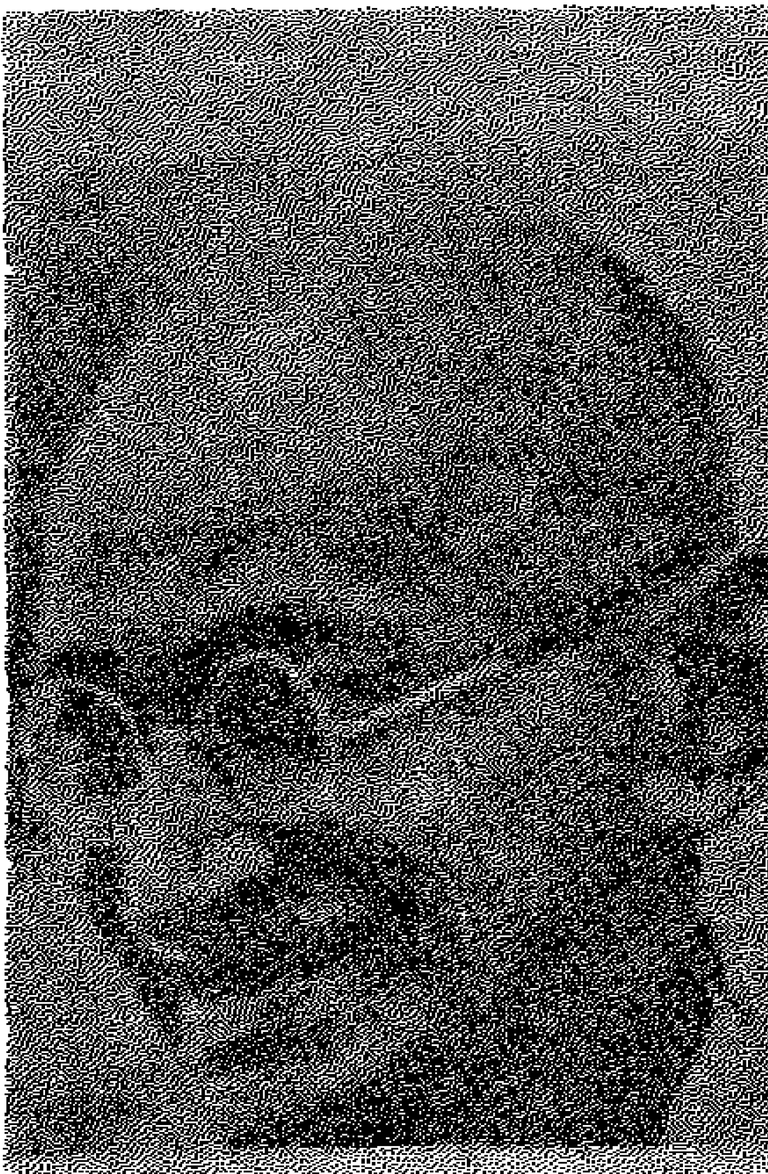
الجريمة المنظمة واغتيال الزعماء
من وجهة نظر سينمائية

□ □ جرائم اغتيال الزعماء والمشاهير من رجال السياسة والمجتمع، أصبحت ظاهرة دولية وجزءاً من الحياة اليومية في عالمنا ونحن نقف على اعتاب القرن الحادي والعشرين، فلا يكاد يمر علينا يوم أو بضعة أسابيع إلا ونسمع أو نقرأ أنباء عن عمليات ارهابية أسفرت عن اغتيال شخصية سياسية او اجتماعية كبيرة في بلدٍ ما من البلدان. انه مسلسل الدم المستمر.

■ الاغتيال السياسي:

□ □ بالطبع لم تغفل السينما العالمية ظاهرة الاغتيالات السياسية، وتناولتها في عشرات الافلام باشكالها وابعادها المختلفة وذلك لكونها مادة ثرية في يد الكتاب السينمائيين، فهذه النوعية من الأفلام مضمونة النجاح التجاري لما تحويه احداثها من عناصر الابهار والتشويق والاثارة وهي عناصر من شأنها جذب اهتمام الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية وانتماءاتهم السياسية.

□ □ ويوماً بعد يوم تتهافت شركات الانتاج السينمائي في العالم على تقديم جرائم الاغتيالات السياسية في العديد من الأفلام. وسنتعرض هنا لاهم الافلام العالمية التي استلهمت مواضيعها من أشهر جرائم الاغتيال السياسي في العصر الحديث.



■ المهاتما غاندي:

□ □ اهتمت السينما الهندية اهتماماً كبيراً بالاغتيالات السياسية في الهند خاصة اغتيال الزعيم الروحي المهاتماغاندي وذلك من خلال فيلم «غاندي» الذي انتج عام ١٩٨٢ واخرجه

ريتشارد اتنبرو، وادى دور غاندي فيه النجم العالمي بن كنجسلي بالاشتراك مع تريفورها وارد وادوار فوكس وكانديس بيرجن وقد حقق هذا الفيلم رقماً قياسياً في جوائز الاوسكار التي حصل عليها وهي ثمانٍ. وقد تعرض الفيلم في ختام احداثه لجريمة اغتيال غاندي باعتبارها الخاتمة المأساوية لحياته.

□ □ وهناك فيلم آخر قدمته السينما الاميركية منذ حوالي الثلاثين عاماً تناول في موضوعه قصة اغتيال غاندي فقط او بالتحديد قصة الساعات القليلة التي سبقت اغتياله بالرصاص في ٣٠ كانون الثاني - يناير عام ١٩٤٨م على يد أحد الشبان المتطرفين بينما كان متجهاً لحضور اجتماع بمدينة نيودلهي لاقامة الصلاة من أجل السلام الاجتماعي بين طوائف الشعب الهندي، واسم هذا الفيلم «تسع ساعات الى راما» وهو من اخراج «مارك روبنسون» ولم يتعرض فيه لشخصية غاندي بقدر ما تعرض بالتحليل الدقيق لشخصية الشاب المتطرف الذي اغتاله مع ابراز الدوافع السياسية والاجتماعية والنفسية التي قادته إلى هذه الجريمة البشعة..

والفيلم بهذه التركيبة يتناول جريمة الاغتيال من وجهة نظر القاتل وذلك بهدف رسم صورة واقعية واضحة لابعاد التمزق السياسي والصراع الطائفي الدموي داخل المجتمع الهندي. وقد اشار المخرج مارك روبسون الى أن انهار الدماء ستظل تجري على أرض الهند طالما ظل الصراع الطائفي والديني قائماً. وقد صدق مارك في نبوءته.

■ جون كينيدي:

□ □ قدمت السينما والتلفزيون الاميركي العديد من الأعمال التسجيلية والدرامية التي تناولت جريمة اغتيال جون كينيدي رئيس الجمهورية الاميركية بمدينة دالاس يوم ٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٦٣ .

وقد حاولت الافلام السينمائية ان تحل لغز مقتل كينيدي وأن تجيب على كل هذه التساؤلات كل حسب وجهة نظره، فمنهم من أدان اليهود الاميركيين، ومنهم من اتهم خصومه السياسيين ومنهم من وجه اصابع الاتهام الى المخابرات الاميركية نفسها.. وهكذا ضاعت الحقيقة، ولعل هذا

هو السبب في ان صناع السينما ما زالوا يفكرون في تقديم أفلام جديدة حول هذه الجريمة الغامضة.

□ □ وأهم الافلام التي تناولت قصة اغتيال كينيدي هي:

١ ـ الخونة:

□ □ «الخونة» فيلم انتجته اميركا عام ١٩٧٣ أي بعد عشرة أعوام من الجريمة وأخرجه ديفيد ميللر عن سيناريو لدالتون ترامبو، وقام ببطولة الفيلم بيرت لانكستر وروبرت رايان وجون اندرسون. وتناول قصة اغتيال كينيدي بالشكل الذي وقعت به.

٢ ـ قتلة الشتاء:

□ □ «قتلة الشتاء» فيلم أنتجته اميركا عام ١٩٧٩، واخرجه ويليام ريشرت وحشد لبطولته مجموعة ضخمة من النجوم منهم انتوني بيركنز واليزابيت تايلور وجون هيوستن...

وهذا الفيلم يحاول بشكل او بآخر إبعاد اصابع الاتهام عن جهاز المخابرات الاميركية وذلك بعد أن ظهرت تفسيرات وآراء عديدة داخل وخارج اميركا تتهم صراحة المخابرات المركزية الاميركية (سي.آي.إيه) بانها كانت وراء تدبير اغتيال كينيدي.

٣ ـ عصر الارهاب:

□ □ «عصر الارهاب» فيلم انتجته فرنسا عام ١٩٨٠م وهو من اخراج هنري فرنوي وبطولة ايف مونتان وميشيل البرتيني وجان فرنسوا جارو....

إذا كان فيلم «قتلة الشتاء» يحاول الدفاع عن المخابرات الاميركية فإن هذا الفيلم الذي ظهر بعده بعام واحد يدينها بشكل مباشر ويؤكد ان جهازها هو الذي دبر هذه الجريمة باحكام...

وكلمة «ايكار» الواردة في عنوان الفيلم هي الاسم الفرنسي للشخصية الاسطورية اليونانية المعروفة «ايكاروس» وهو الذي أسرف في التحليق عالياً بعد فراره من السجن حتى أصبح على مقربة من قرص الشمس فذاب جناحاه الشمعيان وهوى ساقطاً في أعماق البحر.. وبهذا التفسير يوحي الينا اسم الفيلم بان جون كينيدي بأفكاره الديمقراطية التحررية الجريئة حلق عالياً في السماء حتى اقترب من

قرص الشمس وهي كبد الحقيقة، فتصدت له رصاصات ونيران جهاز المخابرات فاسقطته قتيلاً.

٤ ـ اغتيال الحقيقة:

«اغتيال الحقيقة» فيلم من انتاج اميركا عام ١٩٨٤ اي بعد عشرين عاماً من اغتيال جون كينيدي، وهو من اخراج بيل تاتين وبطولة كريس كريستوفرسون وتريت ويليام. و «اغتيال الحقيقة» يدين المنظمات اليهودية العالمية بانها هي التي دبرت هذه الجريمة بمساعدة المخابرات الاميركية.

٥ ـ محنة لي هارفي اوزولد:

«محنة لي هارفي أوزولد» فيلم من انتاج احدى شركات التلفزيون الاميركية، أخرجه ديفيد جربي وقام ببطولته بن جازارا ولورين جرين.. وترجع اهمية هذا الفلم الى أنه تناول جريمة اغتيال كينيدي من وجهة نظر قاتله: «لي هارفي اوزولد» الذي اغتيل هو الآخر على يد اليهودي روبنشاين حيث اطلق عليه الرصاص من مسافة قصيرة جداً بينما كان في طريقه الى قاعة المحكمة وسط حراسة امنية مشددة، والسؤال الذي يطرحه الفيلم: هل قام اليهودي روبنشاين بقتل اوزولد انتقاماً منه على قتل جون كينيدي ـ كما أعلن ـ ام انه قتله بإيحاء من آخرين حتى يمنعه من الادلاء بشهادته وأقواله أمام رجال التحقيق؟.

الفيلم يرجح الاحتمال الثاني ويوصي بأن المخابرات الاميركية هي أيضاً التي دبرت لقتل اوزولد حتى لا يعترف بتورطها في اغتيال كينيدي.

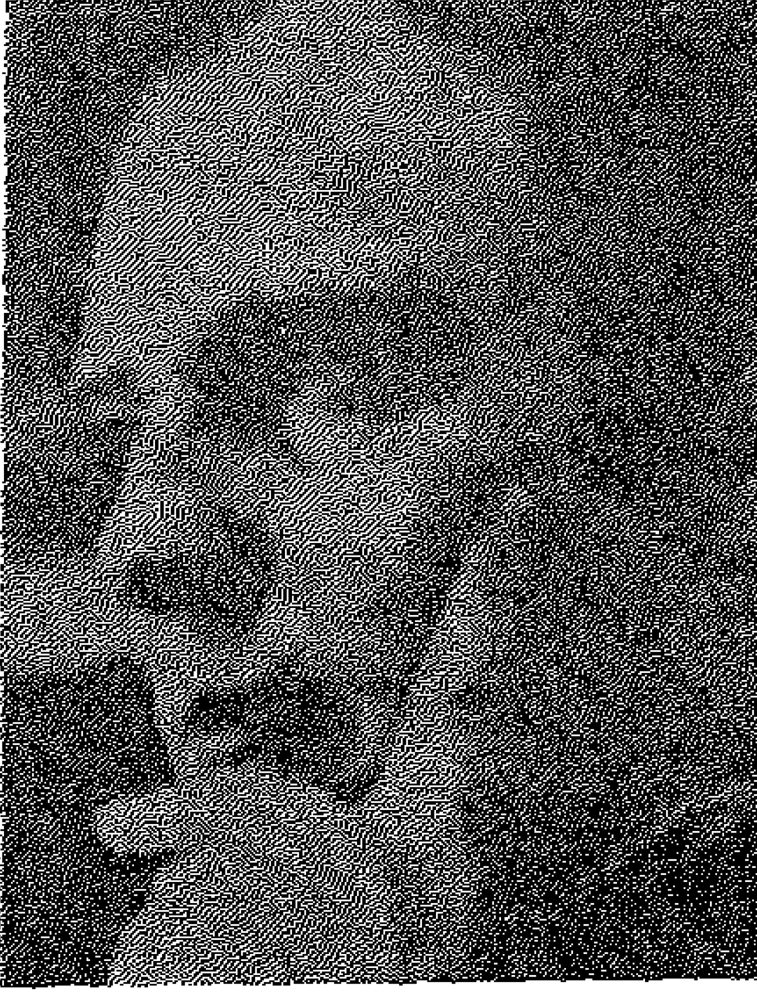
■ تروتسكي:

□ □ «تروتسكي» احد قادة الثورة البلشفية الحمراء التي قامت في الاتحاد السوفييتي السابق عام ١٩١٧ .كان لهذا الزعيم آراء ووجهات نظر سياسية تختلف عن آراء باقي زعماء الثورة وأهمهم في تلك الفترة لينين وستالين.. وقد قتل تروتسكي في السنوات الاولى من عمر الثورة البلشفية وأحيط اغتياله بستار من الغموض والتعتيم الاعلامي.

□ □ وبعد سنوات من حادث الاغتيال جاء المخرج العالمي الكبير جوزيف لوزي وقدم فيلماً أجاب فيه على هذا السؤال وأدان صراحة زعماء الثورة بانهم هم

الذين دبروا قتل رفيقهم خوفاً من أفكاره السياسية وخاصة أنهم قد أحسوا انها تجد صدى وقبولاً عند عامة الشعب... وقد قام ببطولة الفيلم النجم العالمي ريتشارد بيرتون في دور تروتسكي.

■ إنها اليونان في «زد»:



□ □ «زد ـ Z» هذا الفيلم يؤكد ان قصص الاغتيال السياسي يمكن أن تصبح مادة خصبة وثرية لعمل سينمائي جيد وجاد. «زد ـ Z» للمخرج اليوناني الكبير «كوستا جافراس» عن قصة حقيقية وقعت أحداثها في إحدى مدن اليونان وراح ضحيتها واحد من كبار السياسيين وعضو بارز في البرلمان اليوناني.. وقد صاغ قصة اغتيال هذا الزعيم السياسي الكاتب اليوناني الكبير «فاسيلي فاسيليكوس» الذي عرض في روايته كل الوقائع والاحداث الحقيقية لهذه الجريمة ولكنه اخفى اسماء الشخصيات ومواقع الاحداث كما اخفى ايضاً عنصر الزمن، فأنت لا تعرف ان كانت وقائع هذه القصة تدور في اليونان أو في أي مكان آخر من العالم، كما أنك لا تعرف كذلك إن كانت هذه الاحداث قد جرت بالأمس أم اليوم..

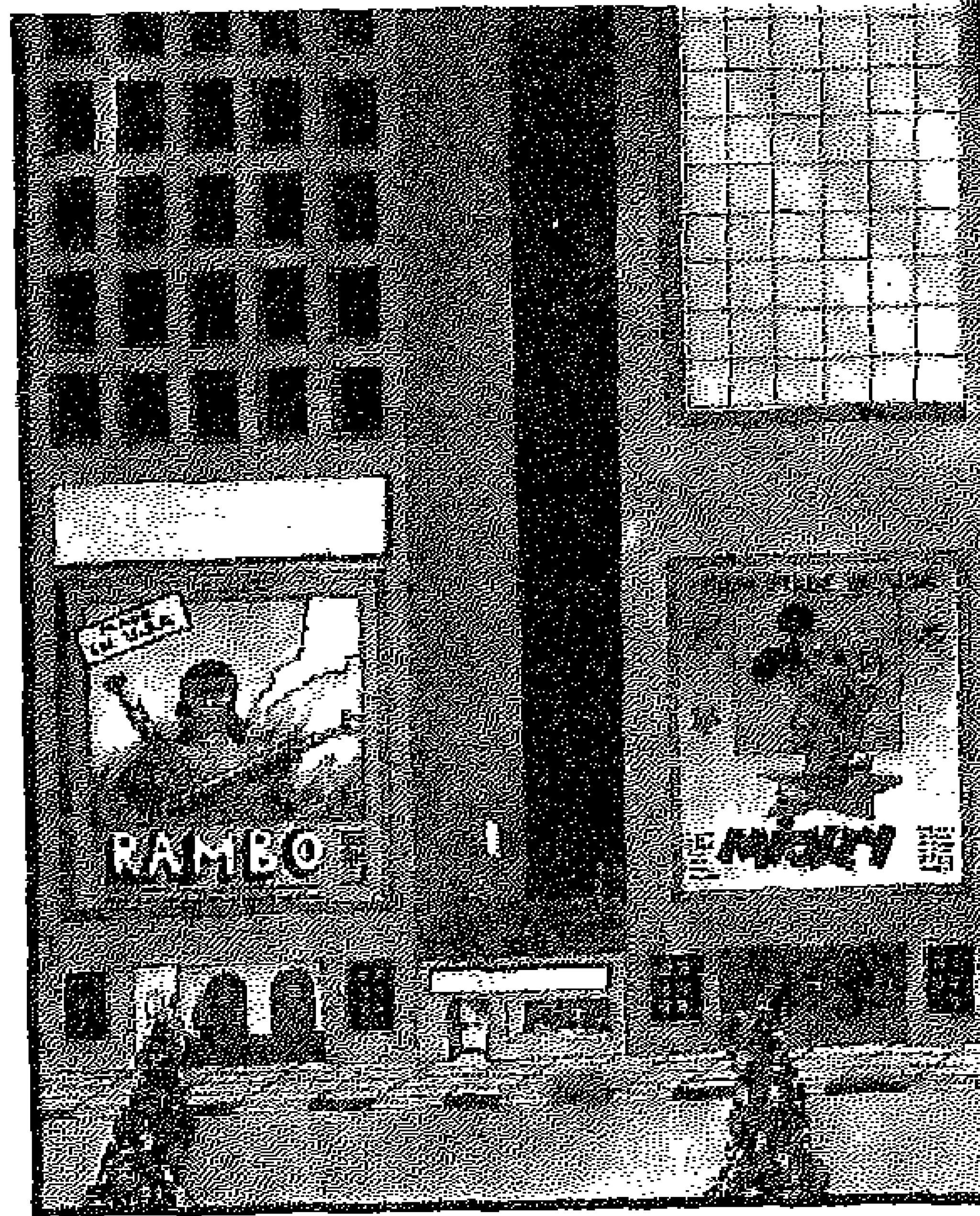
وبالطبع لجا فاسيليكوس لهذه الحيلة الادبية هروباً من بطش الجهاز الحاكم والرقابة، وخوفاً من ان يتعرض هو شخصياً لما سبق وتعرض له النائب اليوناني القتيل وخاصة انه في روايته أدان واتهم الجميع بما فيهم الحكومة والشرطة والسلطة القضائية.

وعندما جاء كرستاجافراس وأعد هذه الرواية في فيلم سينمائي سار على نهج المؤلف من حيث عدم تحديد عنصر الزمان والمكان إلا أنه نجح بذكاء وبساطة في ان يحدد لنا كل شيء، يريد ان يقوله، فالزمن في الفيلم هو العصر الحالي هذه الايام وظهر هذا واضحاً من خلال طراز السيارات والدراجات البخارية وموضات الملابس. أما المكان فهو اليونان، وجاء هذا واضحاً أيضاً من اسم الفيلم «زد ـ Z» فحرف «زد ـ Z» في اللغة اليونانية القديمة كان معناه أنه «حي». ويقصد المخرج بهذا أن يقول:

«إن المبادىء التي نادى بها هذا السياسي لن تموت باغتياله، وستظل حية رغم قتله، فهو اذن حي».

كذلك نجح المخرج من خلال الموسيقى التصويرية التي ألفها موسيقار اليونان الكبير «تيودور اكيس» - مؤلف موسيقا زوربا - ان يؤكد عن طريق السمع ان اليونان هي الحضارة، فنغمات «تيودوراكيس» المستمدة من صميم الوجدان الشعبي اليوناني ما ان تسمعها الا وتشعر أنك في اليونان بأحيائها الشعبية وجبالها العالية وشواطئها الفيروزية.

□ □ وهذا الثلاثي اليوناني - المخرج والمؤلف والموسيقي - نجحوا من خلال هذا الفيلم وأثبتوا مدى صدق الفنان في تعامله مع النص والحدث. وبجانب هذا الثلاثي كان هناك ثلاثي فني آخر لا يقلون عنهم روعة ومقدرة وهم الممثلون الثلاثة إيف مونتان في دور السياسي المعارض وإيرين باباس في دور زوجته وجان لوي ترينتان في دور المحقق الشاب، وقد حصل ترينتان على جائزة احسن ممثل في مهرجان كان عام ١٩٦٩، كما حصل الفيلم على جائزة لجنة التحكيم الخاصة من نفس المهرجان. كما حصل على جائزة اوسكار احسن فيلم اجنبي عرض في اميركا عام ١٩٦٩، ونال كذلك على جائزة نقاد نيويورك الكبرى التي يمنحها النقاد الاميركيون كل عام لأحسن فيلم يعرض في بلادهم.



تجارة الإبادة البشرية

□ □ حسناوات الجميلات.. شقراوات من الغرب والشرق.. من رومانيا وأوكرانيا.. من بولندا وروسيا.. أيضاً من مختلف دول أوروبا الشرقية والغربية تخصص في عرضهن كباريهات متخصصة موزعة في بقاع شتى من العالم. انه عالم آخر من عوالم الجريمة المنظمة، جريمة (تجارة الرقيق الأبيض). وأكبر شاهد ومثال حول هذه الجريمة ما يحصل في قبرص وتحديداً في العاصمة نيقوسيا مما أدى التنافس الى تصفية الحسابات بين اثنين من كبار التجار باراقة بحر من الدماء.. انتقام شرس والسبب: التسابق في استقطاب وسرقة الشقراوات والحسناوات اللاتي يعتبرن التجارة الرابحة.

□ □ مسرح الجريمة هو: كباريه «بابليون» لصاحبه «شارلي كونستاندنيدو» الذي أصبح من مشاهير تجارة الرقيق الأبيض وتعددت رحلاته لدول عديدة لاستيراد الجميلات من الفتيات لعرضهن في نيقوسيا ولكل من يرتاد هذا النادي الليلي.. في يوم من الأيام الراقصة لم يكن «شارلي كونستاندنيدو» في محله.. وكان نائبه «ماركو» المعروف باسم «ميكي» وهو المسؤول عن الادارة والتنظيم «وأثناء العرض الراقص لمجموعة من الشقراوات وتهافت الحاضرين على اللوحات المتحركة التي تثير الغرائز، جاء أحد العاملين ومال على نائب صاحب وقال له أن هناك من ينتظره في مدخل الكباريه» اتجه «ميكي» الى حيث مكان الضيف لقد كان «انطونيو بروكوبيس كيتاس» المعروف باسم «الكابوني» «وهو تاجر آخر من تجار الرقيق الأبيض في نفس المحطة والمنافس الأول لشارلي» لقد كان الكابوني صاحب الجثة الضخمة يصاحبه اثنان من رجال الحراسة الخاصة به «فاريفوس ويوروندي».

□ □ سأل «الكابوني» عن شارلي فكانت اجابة «ميكي» انه في مهمة خارج البلاد (واذا اردت مقابلته مرة أخرى عليك بأخذ موعد مسبق منه عن طريق التلفون قبل الحضور).. وقبل أن ينتهي «ميكي» من الاجابة انطلقت داخل بطنه

سكين من نوع خاص (قرن الغزال) منقوش عليها اسم الكابوني، سقط على اثرها وهو يصرخ... وأخذ الحراس يضربون «ميكي» بوحشية وبدون رحمة ثم انطلقت رصاصة من مسدس «الكابوني» لتستقر في جسد ميكي. وفي أقل من دقيقة انطلق الرجال الثلاثة خارج المحل وفروا في سيارة كانت بانتظارهم. ثم نقل ميكي الى المستشفى حيث قرر الأطباء أنه سوف يعيش عاجزاً مدى الحياة!.

في اليوم التالي وعقب عودة شارلي من الخارج أنكر تماماً أمام المحققين أن له أعداء أو منافسين قد يكونون مرتكبي هذا الحادث البشع بالرغم من مظاهر القلق الشديد التي بدت عليه.

□ □ نفس القلق أصاب «الملكة كريستين السويدية» وهي زوجة شارلي التي تزوجته وأنجبت له طفلين بعد أن تعرفت عليه في نهاية عام ١٩٨٧ ... وكانت قد وصلت الى قبرص للعمل مثل باقي الفتيات في محل شارلي.. ولكن الملكة كريستين السويدية أثارت شارلي ووقع في غرامها وأصبحت الزوجة التي تعلم كل شيء عن طبيعة عمل زوجها!!.

□ □ ...وبعد ان ازدهرت تجارة الرقيق الأبيض في قبرص (كمثال) وأصبحت مرتعاً لكل النزوات بدأ النزاع والتنافس بين كبار التجار هناك خاصة بين شارلي والكابوني (مافيا تجارة الرقيق الأبيض)، وصل هذا النزاع الى حد سرقة «البضاعة»!! بمعنى أن شارلي كان يستقطب الفتيات اللاتي يعملن مع الكابوني للعمل معه.. حتى وصل الى جذب «روكسانا لبلوك» (٢٢ سنة) الاوكرانية الشقراء والبطلة الأولى والمفضلة لدى زبائن (الكابوني) وكان ذلك في ربيع عام ١٩٩٣ ، هذه الحدثة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، بعدها اندلعت الحرب بين (شارلي والكابوني) وصلت الى بحر من الدماء!!.

□ □ بدأت هذه الحرب بضرب «ميكي» النائب الأول لشارلي.. ثم بخطف الملكة كريستين السويسرية زوجة شارلي أثناء عودتها الى منزلها في المساء..

اعتقد شارلي ان خطف زوجته مجرد تهديد من غريمه ومحاولة من جانبه لوضع هدنة بين الطرفين لذلك لم يتصل بالبوليس، وانتظر أن يعلن «الكابوني» عن ذلك في محاولة لوضع النقط فوق الحروف!.. ولكن (للأسف) كان اعتقاد شارلي في غير محله.. لقد اغتصبت كريستين من

الكابوني ورجاله... وتم تعذيبها بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة حتى ماتت، وتم تقطيع جسدها إلى أجزاء، ودفن كل جزء في مكان يبتعد عن الآخر حتى لا يمكن العثور على جسم الضحية.

□ □ لم يكتف «الكابوني» بهذه الجريمة البشعة «فقد استمر في اراقة الدماء وقامت مجموعة من رجاله بالاتفاق مع نفس سائق السيارة بخطف «روكسانا لبلوك» ونقلها الى مكان مهجور حيث تم الاعتداء عليها واغتصابها وتعذيبها حتى الموت ثم ألقوا بها في بئر مهجورة بجانب مطار «لارنكا».

□ □ وقرر الكابوني الاستمرار في الانتقام بفكرة جهنمية. لقد ارسل للشرطة خطاباً من مجهول يؤكد فيه أن شارلي قد استأجر مجموعة من قطاع الطرق للتخلص من زوجته أولاً ثم من «روكسانا»... مما اضطر رجال الشرطة الى القاء القبض على شارلي.

□ □ وأمام المحققين اضطر شارلي للاعتراف بالقصة كاملة وأكد أن الفاعل الوحيد لهذه الجرائم المتعددة هو منافسه «الكابوني» ابتداء من حادث ميكي وحتى اختفاء زوجته روكسانا، ولكن لم تكن هناك الادلة القاطعة على ذلك. وخوفاً من بطش الكابوني وحتى لا تمتد يد الاجرام الى الأولاد قرر شارلي الاعتكاف في ناديه الليلي والابتعاد تماماً عن تجارة الرقيق الابيض واكتفى (بالكباريه) فقط كمصدر رزق وترك الساحة فارغة أمام الكابوني الذي أصبح ملك تجارة الرقيق الأبيض في قبرص!!.

● ولكن أين اختفت كريستين وروكسانا؟؟

□ □ بدأ ضابط شرطة في البحث عن الحقيقة وتأكد أن السر كله مع رجال الكابوني الذي لا يمكن الوصول اليهم!!.. وهنا لاحت له فكرة، وهي إلقاء القبض على سائق السيارة الذي يعمل مع الكابوني بتهمة بعيدة كل البعد عن جرائم الكابوني.. وألقي به في السجن في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٩٣ ، ثم اطلق الضابط اشاعة داخل مهجع السائق بأنه قد تم القاء القبض على الكابوني بتهمة مقتل كريستين بعد أن اعترف عليه السائق... وقالوا له: سوف ينزل الكابوني في نفس المهجع ولن تفلت من عقابه.

□ □ هنا وأمام هذه التمثيلية المحبوكة داخل السجن انهار السائق خوفاً من مقابلة الكابوني واعترف بكل الجرائم التي ارتكبها هذا التاجر المخيف.. كما اعترف بأنه اشترك في عمليات الخطف ونقل أجزاء جثث القتلى وعن مكان اخفائها.

تم القاء القبض على الكابوني وشركائه وتم ايداعهم السجن في مهج آخر بعيداً عن الذي يقطن به السائق الذي اعتبر شاهداً في تلك الجرائم البشعة لتخفيف الحكم عليه في عدة قضايا (الخطف ـ الاغتصاب ـ القتل!!).

ـ ٢ ـ

□ □ صورة أخرى من صور الجريمة المنظمة، جريمة التجارة بالأعضاء البشرية، وعلى الرغم من من كثرتها فسنختار آخر صرخة انطلقت في التسعينات حول هذه الجريمة النكراء حيث لكل عضو من أعضاء الجسد البشري عشرة أو عشرين ألف دولار!!. وهذه الصورة تجيء من ايطاليا:

«إن ايطاليا تقف الآن في قفص الاتهام أمام البرلمان الأوروبي الذي صدق عليه قرار يقضي بمحاكمة تجار أعضاء الجسم البشري».

هذه هي صرخة ليون شوارتزنبرج نائب البرلمان الاوربي ضد ايطاليا وهو الذي أعد تقريراً عن حقائق هذه التجارة البشعة.

وقد أثار التقرير ضجة كبرى في ستراسبورج وكان بمثابة صدمة عنيفة هزت الأوساط الطبية بعد أن أوضح نائب البرلمان الأوربي أن التقارير تشير إلى أنه تم استيراد حوالي أربعة آلاف طفل برازيلي الى ايطاليا في الفترة ما بين عامي ١٩٨٨ـ١٩٩٢ ، تحت مسمى أطفال التبني بصفة رسمية. وقال شوارتزنبرج في اتهامه أمام أعضاء البرلمان أنه لم يعثر إلَّا على ألف طفل فقط على قيد الحياة بينما لايوجد أي أثر من الثلاثة آلاف طفل الباقين.

□ □ وقد نفى وزير العدل الايطالي (جوفاني كونسو) بشدة هذا الاتهام مؤكداً أن:

«الأطفال القادمين من البرازيل الذين دخلوا إلى ايطاليا رسمياً فيما بين عامي ١٩٨٨ـ١٩٩٢ بغرض التبني، لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف وسبعمائة طفل وجميعهم يعيشون في سعادة تحت رعاية الأسر التي تبنتهم»!!.

وهكذا جاء تصريح وزير العدل كونسو منفذاً لجميع الحقائق التي أرسلها عضو البرلمان الأوروبي وواصفاً اياها بأنها تؤكد أنه لا أساس لها من الصحة.

غير أن صرامة القانون الايطالي الخاص بالتبني على المستوى الدولي تحول دون استخدام هذا القانون في غير الأغراض الشرعية له ـ كما جاء في اتهامات نائب البرلمان الأوروبي. وانطلاقاً من هذا المعنى «يؤكد وزير العدل الايطالي أن القانون في ايطاليا يعتبر واحداً من القوانين التي تضمن تحقيق التبني الشرعي في ظل الشرعية الحقيقية، والدليل على ذلك البند الذي ينص على توفير كافة الضمانات للطفل المتبنى وذلك قبل عام من التبني ومن هنا كان تطبيق هذه القواعد واللوائح، هام جداً لتوفير اكبر قدر من الأمان ومنع وقوع أية أعمال مخالفة بما فيها أيضاً ظاهرة انتزاع الأعضاء البشرية من الاطفال.

□ □ والجريمة مضاعفة عندما يختصر الوزير حديثه بقوله:

«إن ما يضاعف من وحشية هذه الجرائم التي ترتكب أن كثيراً من الأطفال الرازيليين قد تم احتجازهم بناء على أوامر صادرة من عصابات الكامورا في مدينة نابولي في عيادات سرية في المكسيك وتايلاند وأوروربا أيضاً حيث تم انتزاع جميع اعضائهم البشرية ـ أي أنهم قتلوا ليمنحوا غيرهم الحياة».

والمعروف طبياً أن الكلى وحدها التي يمكن أن تنتزع من أي كائن بشري دون أن يتسبب ذلك في موته ـ إلا أنه يستطيع أن يعيش بكلية واحدة ـ ولكن من الواضح أن ما يحدث لهؤلاء الأطفال هو انتزاع جميع أعضائهم بما في ذلك القلب والكبد والرئتين والأمعاء الدقيقة والغليظة، وبيعها في سوق الأعضاء البشرية ـ مقابل عشرات الآلاف من الدولارات.

□ □ والسؤال المرّ: لماذا اختاروا أطفال البرازيل بالذات... (اذا صدقت الانباء)؟!. والجواب (أقبح من ذنب):

«ان البرازيل تقتل أطفال الشوارع..
فلماذا لا تستفيد منهم البشرية بدلاً من أن يموتوا كما تموت الكلاب الضالة!!».

- ٣ -

□ □ «متفائلون».. نعم!. ولكن هل يتجلى التفاؤل بهذا التكاثر المخيف والمرعب لعدد الموتى، جوعاً وتشرداً؟.

ان في هذا التفاؤل «الأعمى» ما يثير الشك، ذلك أن الواقع مازال ينظر بعين الأسى «لحضارة» لم تشعر بعد بأي إثم أو ذنب. ثم ماذا؟ أنها صرخة من صرخات.. صرخة تحذير الآن، وإلا، وإلا أبداً!.

□ □ منذ مئتي عام قامت الثورة الفرنسية التي تعتبر من أهم انجازات الانسانية في تاريخ نضال الشعوب. على مبادىء الحرية والمساواة والاخاء، ومع ذلك فان الاسباب والدوافع التي شكلت أرضية تلك الثورة لازالت قائمة، فلا الظلم انتهى، ولا امتيازات طبقة معينة انتهت، بل تفاقم الظلم واتسعت المآسي، وبلغ تشابك المشاكل الانسانية درجة كبيرة، من التعقيد والحدة، تسمح بالقول بأن البشرية تواجه خطراً هائلاً، ناشئاً عن الحروب المحلية والصراعات الاثنية، والظلم الاجتماعي الفادح والفروق الهائلة بين الشمال والجنوب وانتشار البطالة، والمخدرات والمجاعات والاوبئة في افريقيا وآسيا. هذا كله بالإضافة الى حجم التلوث الهائل الذي أصاب الكرة الأرضية، وكل هذا لا يبعث على اطمئنان البشرية، بل يهدم حلمها الابدي بمستقبل مشرق وبعدالة اجتماعية وبمساواة بين شعوب الأرض.



الجريمة والجريمة المنظمة

■ ناغورني كاراباخ

□ □ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي تصاعدت الفتنة واعمال الشغب بين الجمهوريتين الجارتين، ارمينيا واذربيجان مما دعا الى نزوح مكثف من كلا الطرفين، وتعمل المنظمات الدولية جاهدة لايقاف هذا الصراع الدموي بين القوميتين، وفرض الحد الادنى من احترام حقوق الانسان ومراعاة المؤسسات الانسانية كالمستشفيات والمدارس، وقد قتل في ذلك الصراع الدامي اكثر من ٢٠٠٠ شخص، وشُرّد حوالي ٦٠٠ ألف شخص.

■ الصومال

□ □ قبل سقوط الديكتاتور سياد بري في كانون الثاني - يناير عام ١٩٩١ ، كانت الصومال اكثر البلدان فقراً في العالم وقد انتظر الشعب من الثوار أن ينشروا العدل والديمقراطية والسلام في ارجاء البلاد ولكن البلاد غرقت بعد ذلك بحرب أهلية، وقد حاولت الولايات المتحدة الاميركية فرض سلامها الخاص، وذلك بارسال قوات عسكرية هناك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل ستحل تلك القوات المشكلة، أم أنها ستخلق مشاكل اضافية هناك؟ الحقيقة أنها كانت مزيداً من الدماء.

■ العراق

□ □ اكثر من ٢٥ الف شخص ماتوا بينما هناك ٢٠٠ الف شخص مشرد.

واذا كان الشعب العربي في العراق قد تلقى مأزق تصرفات طائشة لديكتاتور، ودفع ثمناً غالياً لتطلعاته، فانه اليوم يتلقى المأزق الاشد خطراً على بنيته ووحدته بل ومصيره.

ان عمليات «البتر» الجارية قد أدت في جنوب العراق، كما في شماله الى سقوط الاف الضحايا، هذا عدا التهديم والتشرد والمجاعات والتعرض للأمراض والأوبئة.

■ البيرو

□ يعاني أهل البيرو معاناة مضاعفة فهم بين فكي كماشة فحرب العصابات، ثم المجموعات المسلحة التي تتاجر بالمخدرات من جهة، ووحدات الجيش المضادة لجماعة العصابات من جهة أخرى.

والسكان يقطنون المناطق العالية وهم في حالة رعب وخوف من الحرب الدائرة بين الجهتين والتي تركت وراءها امواجاً من العاطلين عن العمل والمشردين. والقتلى وصل عددهم ٢٥ الف شخص اما المشردون فوصل عددهم الى ٢٠٠ ألف شخص. واكثر المناطق المعرضة لهذا العنف منطقة الاياكوسو.

■ موزامبيق

□ هذه المستعمرة البرتغالية السابقة لم تعرف السلام بسبب عوامل عدة، من اهمها الجفاف والكوارث الاقتصادية والمجاعة. والرعب والذعر اللذان ينتشران بسبب العصابات المسلحة.

وقد مات بسبب المجاعة اكثر من مليون شخص، وهناك ثلاثة ملايين شخص بين لاجيء ومشرد، ويعيش اكثر من اربعة ملايين (أي ربع السكان) على المساعدات الدولية.

■ يوغسلافيا

□ بعد اربعين سنة على وجود الاتحاد اليوغسلافي. بدأ يتفكك الآن، ويعاني من أشد الحروب الاهلية ضراوة.

بدأت الحربَ الأهلية نتيجة تصعيد الخلافات التاريخية الى حدها الاعلى ولعبت اطراف خارجية دوراً لا يستهان به وبشكل خفي (خصوصاً اميركا) التي استغلت هذه الخلافات واشعلت نار الفتنة بين الاطراف المتنازعة، الصرب من جهة والكروات من جهة والبوسنيين (المسلمين) من جهة ثالثة، وقد أدى هذا الصراع الى مقتل ٤٠ الف شخص، وتشريد مليونين ونصف المليون.

■ بورما

تقوم الحكومة البورمية بشن حملات تطهيرية ضد الاقلية المسلمة هناك «الروهينجياس» والتي تسكن في منطقة «الاراكان».

وتحاول الحكومة بشتى الوسائل ـ ابتداء من تدمير القرى واغتصاب النساء وانتهاء بكل اشكال التعذيب. ان تدفعهم الى الهجرة، وذلك تطبيقاً للسياسة العنصرية التي تؤمن بالنقاء العرقي، والحكومة تعمل على تسهيل ترحيلهم باعداد كبيرة باتجاه بنغلادش البلد الاكثر فقراً وكثافة بالسكان.

وحتى اليوم لم تحرك الامم المتحدة ساكناً لنجدة تلك الاقلية المضطهدة التي بلغ عدد قتلاها ٢٥ الف شخص. وعدد مشرديها ٢٠٠ الف شخص.

■ الطوارق

□ □ شعب مطارد من قبل الحكومات المرتبطة بالاستعمار. وهم يقطنون مابين مالي والنيجر والجزائر وبوركينا فاسو وليبيا. ومنذ عام ١٩٩٠ وهم يثورون ضد سلطات مالي والنيجر، وقد لاقى ٣ ألاف شخص مصرعهم نتيجة هذا الصراع، وبلغ عدد اللاجئين ١٠٠ ألف شخص.

■ السودان

□ □ كانت نتيجة الحرب الدائرة بين حكومة الخرطوم والانفصاليين في الجنوب بالسودان ٦٠٠ ألف قتيل، واكثر من ٧٠٠ ألف لاجيء ومشرد.

وتعاني السودان من اوضاع اقتصادية سيئة للغاية، فهي تتعرض للجفاف الدائم والى موجات متلاحقة من الجراد، وتتعرض الى المجاعة.

■ سيريلانكا

□ □ استمر الصراع بين الاقلية التاميل والاكثرية البوذيين سنوات طويلة في سيريلانكا، وقد كلف هذا الصراع كلفة باهظة في الارواح والممتلكات، فقد قتل ما لا يقل عن ١٥٠ الف شخص، بينما هناك مليون شخص بين لاجيء ومشرد. فقد رحل عن البلد مئات الآلاف الى كل الاتجاهات هرباً من الفساد والدمار والفوضى التي تعم البلاد.

وقد جرت عدة محاولات من اجل التوصل الى حل عادل للصراع، ولكن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل.



المراجع والمصادر

١ـ أد ونيس العكرة: (الارهاب السياسي ـ بحث في اصول الظاهرة وابعادها الانسانية)، دار الطليعة ـ بيروت ـ ط١ ـ لعام ١٩٨٣ م.

٢ـ شبنغلر: غروب أوروبا ـ المجلد الأول ـ موسكو ـ بطرسبورغ ـ ١٩٢٣ م

٣ـ تيد هندريش: (العنف السياسي ـ فلسفته ـ اصوله ـ ابعاده) ـ ترجمة عبد الكريم محفوض وعيسى طنوس ـ ط١ ـ ١٩٨٦ .

٥ـ غيفورجيان. ب.م. الاجرام المنظم في الولايات المتحدة الاميركية.

٦ـ هيئة الأمم المتحدة ـ تقارير رسمية متفرقة.

٧ـ ماديريو: (الخفي أصبح مكشوفاً) ـ موسكو ـ عام ١٩٧٠ م.

٨ـ ماديربو: (اليد الرمادية) ـ موسكو ـ عام ١٩٦٢ م. و(على آثار رجل موسوم) ـ موسكو ـ عام ١٩٦٤ .

٩ـ د.ر. بوفن: (نموذج من العنف المدني) ـ جمعية العلوم السياسية العالمية ـ المؤتمر العالمي الثامن ـ بروكسل ـ ١٩٧٠ .

١٠ـ ارنست فان دن هاغ: (العنف السياسي والعصيان المدني) ـ نيويورك ـ ١٩٧٢

١١ـ «حول ايتولوجية العدوانية ـ البشرية» ـ مجلة العلوم الاجتماعية الدولية (اعداد متفرقة).

١٢ـ المجلة العلمية الأميركية ـ (أعداد متفرقة).

١٣- كوفاليوف ومالشيف: (وراء كواليس الارهاب) - ترجمة زياد الملا - دار دمشق

١٤- مجلة الوحدة - المجلس القومي للثقافة العربية - العدد الخاص (العنف في العلاقات الدولية) - رقم ٦٧ - نيسان، ابريل ١٩٩٠ .

١٥- ف.دينيسوف: (نظريات العنف في الصراع الايديولوجي) - ترجمة د. سحر سعيد - دار دمشق

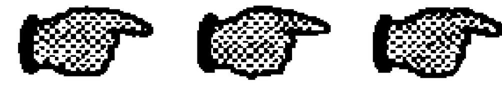
١٦- ماركوز: (الانسان ذو البعد الواحد) - باريس - ١٩٦٨

١٧- ل.ا. مودجوريان: (الأرهاب اكاذيب وحقائق) - ترجمة المهندس عبد الرحيم المقداد والمهندس ماجد بطح - دار دمشق - ط١ - ١٩٨٦

١٨- وليم فوستر: (الشعب الزنجي في التاريخ الامريكي) - الترجمة - العربية - بيروت.

١٩- تقارير لجنة الاستشارات الوطنية في البيت الأبيض الاميركي.

٢٠- روجيه غارودي: (منعطف الاشتراكية الكبير) - الترجمة العربية - دمشق دار البعث.



المحتويات

من مؤلفات
أنور سالم سلّوم

١ ـ أوراق نسائية ـ دار الحكمة ـ دمشق، بيروت.

٢ ـ نساء في حياة العظماء ـ دار الحكمة ـ دمشق، بيروت.

٣ ـ نساء خارج المألوف ـ دار الحكمة ـ دمشق، بيروت.

٤ ـ عوالم الاحتيال والمحتالين ـ دار دمشق ـ دمشق.

٥ ـ حرب المخدرات ـ مكتبة النوري ـ دمشق.

٦ ـ المدمنون ج ١ ـ شركة المجتمع العربي ـ أثينا، اليونان.



يصدر قريباً للمؤلف

أنور سالم سلّوم

١ ـ نساء في قطار الاحتيال.

٢ ـ نساء طاغيات.

٣ ـ المدمنون ج ٢ .

٤ ـ البصّاصون.



□ □ لم يسبق لي أن التقيت جلاداً: أي انساناً تقوم مهنته على تنفيذ حكم الموت بإنسان ما وفق القواعد المتبعة وباسم القانون. لم ألتقِ مثل هذا الجلاد بلحمه وعظمه. لكني رأيت الصورة موجودة في «مطول علم النفس» القديم لجورج دوما، في الفصل الذي يتحدث عن الألم. وهي تمثل العقوبة (الصينية، حسب العادة) المسماة «القطعات المائة» والقصة معروفة جيداً. فهناك شاب قام بعملية اغتيال ضد اسرة الامبراطور. ويقضي القانون بأن يتم حرقه حياً على نار هادئة. غير أن الامبراطور كان، في لحظة حلم، قد اتخذ قراراً:

«لما كانت عقوبة النار شديدة العذاب،

فإن على المحكوم أن يخضع لعقوبة القطعات المائة.

والمجد لهذا القرار».

□ □ وينطوي مطول «دوما» على مجموعة من الصور تمثل كل واحدة منها طوراً من العقاب. لا يمكننا، في مثل هذه القضية أن نتلافى الجلاد. اذ أننا نميزه جيداً في منتصف العقوبة:

«وجهاً لوجه، منحنياً قليلاً، وهو يقوم بنشر الساق، بين القدم والركبة، ولا نرى على وجهه أي أثر للقسوة، وانما نرى ملامح الانتباه، ونوعاً من الرفق، ملامح انسان يقوم بعمل الخير كما يجب القيام به».

□ □ وهكذا فربما كان الشاب قد ارتكب العنف بغضب، غير أن كل شيء يعود الآن الى وضعه الطبيعي دون اضطراب ولا غضب، كما أن وجه الجلاد يحمل علامة هذا الانفراج. لقد كان جلاداً «طيباً، وماهراً، ورؤوفاً». كان يقطع هذا الجسد الحي (بمهارة ورحمة). «رحمة»: هوذا اسم خنجر كان يستخدم قديماً في ذبح الجرحى.

أ. س. س.

